محمـــد

رسول الله ﷺ منهج ورسالة

بحث وتحقيق

الشيخ / محمد الصادق عرجون

الجزء ٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

استطراد انساق إليه السهيلي أشد خطرًا من سابقيه:

ولم يشأ السهيلي -رحمه الله- أن يقف به البحث في موضوع ما زعم أنه قرآن نزل وقرأه الناس ثم نسخت تلاوته وبقي حكمه عند هذا الحد، ولكنه استطرد مرة أخرى إلى الحديث فيما لم تطلبه المناسبة فقال: وأما الحكم الذي بقي وكان قرآنًا يتلى: «فالشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله، ولا ترغبوا عن آبائكم، فإن ذلك كفر بكم».

قال السهيلي: فهذا حكم كان نسخه جائزًا حين نسخ حكم التلاوة، وكان جائزًا أن يبقى حكم التلاوة وينسخ هذا الحكم.

وسبيلنا في مناقشة هذا الكلام هو سبيلنا في مناقشة ما تقدم مما ماثله في التخالف والاختلاف، ولا سيما أن كثيرًا ممن ينسب إلى العلم في الإسلام جعلوا هذا الكلام (الشيخ والشيخة) مثالًا للقرآن الذي أنزل وثبت به حكم النص، ثم نسخت تلاوته وبقي حكمه، وهو رجم المحصن والمحصنة إذا زنيا.

والنظر في هذا الكلام الذي استطرد إليه السهيلي من وجوه:

الوجه الأول: أن القرآن العظيم له ألفاظه المتخيرة لاتساقها مع حقائقه الإلهية ومعانيه الإنسانية التي تؤدى بها، ولكل معنى ألفاظه، ولكل مقام مقال، ولكل حقيقة قالب تصب فيه مع ظهور رونق الإعجاز في آيات الكتاب المبين بجزالة اللفظ ولطفه في أداء أدق المعاني وأعمق الحقائق في أسلوب يزيد معانيه وضوحًا وحسنًا، وترنيماته حلاوة ونغمه سلاسة وعذوبة.

القرآن الحكيم لم يستعمل قط لفظة (الشيخة) وصفًا للمرأة:

ولفظ (الشيخة) تستشعر منه الآذان عند سماعه كزازة وجفوة، ولم نعلم أن القرآن الكريم استعمل هذه اللفظة (الشيخة) وصفًا للمرأة المحصنة قط على أي معنى من معاني الإحصان، ولا بمعنى الثيوبة، ولا بمعنى تصاعد السن ومقاربة الهرم، ولا جاء متواردًا بين العفة والحرية أو التزوج.

بل لم نعلمه مستعملًا بمعنى الإحصان في لغة العرب، بل لا نعلمه مستعملًا للمرأة العجوز المشرفة على الهرم، بل أكثر من ذلك لم نعلمه مستعملًا وصفًا للمرأة بأحد هذه المعاني في أقوال رسول الله ﷺ .

أما لفظ (الشيخ) وصفًا للرجل الذي تجاوز سن الكهولة، ودلف منها إلى الشيخوخة، وأصابه الكبر وهو يمشي وئيدًا إلى الهرم، أي إلى السن التي لا يقدر معها على الحركة الشبابية المتوثبة - فكذلك لا نعلمه ورد في القرآن لفظًا مفردًا إلا ثلاث مرات، كلها بعيدة عن المعنى المناسب لموضوع البحث.

المرة الأولى: جاء على لسان امرأة إبراهيم خليل الله -عليه السلام-، أم ولده إسحاق، وجدة حفيده يعقوب -عليهم السلام-، ويسميها المؤرخون والمحدثون (سارة)، وذلك في قول الله -تعالى- إذ بشرت الملائكة إبراهيم -عليه السلام- وامرأته بولدهما إسحاق وحفيدهما يعقوب:

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾

(هود: ٧١، ٧٢)

المرة الثانية: جاء لفظ (الشيخ) على لسان إخوة يوسف فيما حكاه الله عنهم حين قالوا ليوسف مستعطفين ليترك لهم أخاهم لأبيهم ويأخذ أحدهم مكانه معتذرين:

﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾

(يوسف: ٧٨)

المرة الثالثة: جاء لفظ (الشيخ) حكاية عن اعتذار ابنتي الرجل الصالح لعدم حضور أبيهما لسقي غنمه وإرسالهما للقيام بهذه المهمة، وهذا -قبل ظهور سببه- مما يستحيي منه ذوو المروءات القادرون على تفاديه، وكان الرعاء قد ازدحموا على الماء، وكانت ابنتا الرجل الصالح تذودان غنمهما عن التقدم للشرب في غمرة هذا التزاحم والتدافع اللذين يُخشى منهما على المرأة لضعفها وشدة حيائها، فلما رأى موسى -عليه السلام- منهما ذلك سألهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ (القصص: ٢٣) أي ما شأنكما تذودان أغنامكما عن المسقى؟ فقالتا معتذرتين في أدب جم واحتشام كريم اعتذارًا تضمن أنه لم يكن لأبيهما راع يرعى له غنمه ولم يكن لهما إخوة أو أولياء من المحارم يغنون عنهما في القيام بمهمة سقي الغنم، وتضمن العذر لأبيهما في

عدم حضوره بنفسه لسقي أغنامه: ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ (القصص: ٢٣) لا يحتمل في علو سنه حركة حفظ الغنم عن الانتشار والشرود، ولا يستطيع مزاحمة الرعاء على السقي، واعتذرتا عن ذود أغنامهما عن المسقى، فقالتا: ﴿لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ (القصص: ٢٣) فقام موسى -عليه السلام- مقام النخوة والشهامة وصدق المروءة والنجدة فسقا لهما أغنامهما، ثم عاد إلى حيث كان من الظل، وتوجه إلى ربه ضارعًا بالدعاء يسأله من رزقه الذي كان محتاجًا إليه فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ (القصص: ٢٤)

استصفاء ألفاظ القرآن عنصر من عناصر إعجازه البياني:

والمتأمل في لطائف القرآن واستعماله في أداء معانيه وحقائقه ألفاظًا منتقاة متخيرة يرى رونق الإعجاز يكسو هذا الكتاب العظيم نورًا في هدايته وروعة بيانه وبراعة أسلوبه، مما لا يمكن التسليم معه بما زعم أنه قرآن ثم نسخ نصه وبقي حكمه أن يكون قرآنًا منزلًا من عند الله.

ولو لم يكن من نور الإعجاز إلا هذا الإيجاز في هذه الجملة ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ لكفى في فضل أسلوب القرآن وإعجازه، وقد بينا ما تضمنته هذه الجملة من المعاني الكثيرة التي لو فصلت لتولد منها كثير من الحقائق والمعاني.

ونحن نكتفي بتحليل واحدة من هذه المرات التي ذكر فيها

لفظ (الشيخ) في القرآن الكريم. تأمل قوله -تعالى- على لسان امرأة إبراهيم -عليه السلام- إذ وصفت نفسها في مقام التعجب من أمر هذه البشرى التي زفتها الملائكة إليها وإلى زوجها إبراهيم -عليه السلام-، وقد فاتت أسبابها الظاهرة بأنها (عجوز)، ووصفت زوجها بأنه (شيخ)، وكل لفظ من هذين اللفظين يؤدي في موضعه من نسق الكلام ولطف المعنى ورقة التعبير ما لا يمكن أن يؤديه غيره من الألفاظ التي هي بمعناه في لغة العرب في وضعها الأصيل.

ولنتأمل فيما لو كان الكلام المحكي عن امرأة إبراهيم -عليه السلام- جاء في هذه الصورة (أألد وأنا شيخة وهذا بعلي شيخًا)، أو (أألد وأنا عجوز وهذا بعلي عجوزًا)؛ أكان سامعه أو تاليه يشعر لهذا الكلام بشيء من حلاوة الجرس، وسلاسة اللفظ، وروعة الأسلوب ودقة التعبير باللفظ المناسب في المكان المناسب؟ بل لعل مرهف الحس رقيق الشعور منغم الأذن إذا سمع هذا الكلام في صورته المصنوعة سمج عنده ما يسمع؛ لأن لجرس ألفاظ القرآن وحلاوة نغمه وروعة أسلوبه تأثيرًا على النفوس، ولعل هذا هو السر في نهي غطارفة الشرك وطواغيته[1]، لغوغائهم أن يسمعوا للقرآن خشية عليهم أن تملك روعته مقاليد نفوسهم فيؤمنوا به، كما حكى الله -تعالى- عنهم ذلك في قوله تعالى:

(١) الغطارفة جمع غِطْريف وهو السيد. (المجلة).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ (فصلت : ٢٦)

ومن هنا يظهر جليًا أن المروي في الصحيح وغيره من كلام زُعم أنه قرآن نزل وقرأه الناس ثم نسخ نصه وبقي حكمه لا يحمل شيئًا قط من خصائص القرآن ورونق إعجازه التي لم تكن ولن تكون لكلام غيره قط، وهي منبع إعجازه الأسلوبي وروعة بيانه.

الوجه الثاني: أن القرآن الحكيم إذ ترك لفظ (الشيخة) فلم يستعملها وصفًا للمرأة مطلقًا فيما نعلم، بَلْه وصفًا لها بمعنى محصنة، أي سبق لها أن تزوجت، سواء أكان زواجها قائمًا أم أُيِّمت[٢] بموت زوجها أو طلاقها منه، لكزازة لفظها وعدم مواءمته لنسق القرآن ولطف ملاءمته، واتساق ألفاظه مع رونق معانيه - فإنه استعمل في مكانها بالمعنى المقصود لفظ (محصّنَة) أو (محصِّنة) و(مُحْصَنَة) وفي كل ذلك لمح لمعنى العفة والعفاف والتعفف.

بحث في مادة حصن والإحصان في القرآن:

ومادة (حصن) كما يقول ابن فارس في مقاييس اللغة ترجع إلى الحفظ والحياطة والحذر، ومن هذا المعنى جاء لفظ (حاصن) للمرأة المتعففة، ومنه قول إياس بن قبيصة الطائي:

(٢) أي فقدت زوجها (تهذيب اللغة). (المجلة).

فمـا ولدتنـي حاصـنٌ ربعيّـةٌ

لئن أنا مـالأت الهـوى لاتباعها

ومن هـذا المعنى قولهم للمرأة العفيفـة : (حصان) وعليه قول حسـان بن ثابت -رضي الله عنه- يمدح سيدة الممدحات السيدة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- :

حصـان رزان مـا تـزن بريبـة

وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

قال أحمـد بن يحيى ثعلب : كل امـرأة عفيفة فهي محصَنة ومحصِنـة ، وقال الزمخشـري : الإِحصان العفـة ، ومنه قول الله تعالى :

﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ﴾ (النساء : ٢٥)

وكل امرأة متزوجة فهي محصنة لا غير ، ومنه قوله -تعالى- في حد الإِماء المتزوجات إذا قارفن موجب الحد :

﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ (النساء : ٢٥)

أي نصف حد الحـرة ، لأن المراد بالمحصنات هنا الحرائر المتزوجـات ، وحدُّهن الرجم بأمر رسـول الله ﷺ وفعله ، ولما كان حـد الرجـم لا يتبعض إذ هـو أمر واحد لا يقبـل التجزئة ، فالعدل الشـرعي الذي أنقـص الإِماء عن الحرائـر في الحقوق

يقضـي بأن ينحططن عنهن فـي العقوبة مع المحافظة على حق سيد الأمة في ملكيته لها، لأن زواج الأمة لا يخرجها عن ملكية سيدها.

ومن مجيء الإحصان بمعنى التزوج قول الله تعالى:

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (النساء: ٢٤)

والمـراد بهـن ذوات الأزواج، لأنهـن أحصـن فروجهـن بالتزوج، فهن محصَنات ومحصِنات.

وقد جـاء الإحصان في القـرآن بمعنى الحرية وعدم شـائبة الرق، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ (النساء: ٢٥)

أي سعة في المال للإنفاق على زواج الحرائر

﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ (النساء: ٢٥)

أي الحرائر من النساء المؤمنات. ومنه قوله عز اسمه:

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (المائـدة: ٥) أي أحـل لكـم النسـاء الحرائر العفيفات من المؤمنات، والعفائف الحرائر من النساء الكتابيات أن تتخذوهن زوجات لكم.

وكذلك اسـتعمل القرآن الكريم لفـظ ثيبة بمعنى من تقدم لهـا زواج صحيـح، وهذا المعنـى أحد معانـي الإحصان الذي لا يـكاد يفارقه في الاسـتعمال معنى العفـة والتعفف والعفاف

تضمنيًا، وهو المناسب لمقام الكلام في حد الرجم، وكذلك استعملت الأحاديث النبوية مادة الثيوبة للرجل والمرأة، فالرجل إذا تزوج فهو ثيب، والمرأة إذا تزوجت فهي ثيب، ويجمع المذكر على: ثيبون والمؤنث على ثيبات، ومنه الحديث الشريف: «الثيب أحق بنفسها...» (صحيح مسلم) ومنه أيضًا ما أخرجه مسلم من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ، وهو أظهر في استعمال كلمة ثيب، وعدم استعمال كلمة (شيخة) في مقام البيان لحد الزنا المذكور مبهمًا في قوله تعالى:

﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٥)

قال ﷺ: «خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلًا، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم» ولم تذكر لفظ (الشيخ والشيخة) في مقام الإحصان والرجم قط في القرآن ولا في السنة.

ويظهر أن ذكر هذين اللفظين في كلام من ذكرهما في مقام أبشع الحدود كان من باب تقبيح جرم من يقترفه بعد أن شاخ، وأصبح يجلله وقار الشيخوخة واستحياء السن لأن ارتكاب هذا الجرم الشنيع المقيت ممن بلغ سن الشيخوخة أفحش وأقبح من اقتراف هذا الجرم من لم يبلغ هذه السن، بل بقي فيه من دواعي الشباب ودوافعه ما قد يحجزه عن التورط في أسباب هذه الفعلة الشنيعة الفظيعة التي توائم الشيخوخة الفاجرة.

والكلام في وهن رواية (الشيخ والشيخة) بل بطلان نزولها قرآنًا معجزًا قرئ على الناس وقرءوه، ثم نسخ أو رفع أو نسي وبقي حكمه، كالكلام على ما تقدم من نحو ما قيل في قصة بئر معونة أنه نزل في شأن شهدائها من القراء قرآنًا، ومن نحو ما قيل في (لو أن لابن آدم) من الوهي والوهن، بل من بطلان الزعم بذلك، لما في جميع الروايات من التخالف والاختلاف والقرآن الحكيم الذي أحكم الله آياته وحفظها عن التخالف والاختلاف يستحيل أن يقع فيه شيء من ذلك كما قال الله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢)

وهذا عام في كل اختلاف يؤدي إلى الاضطراب ورفع الثقة بالنص، وقصره على بعض الاختلاف قصور بعموم النص.

وقد بينا بيانًا واضحًا فيما سبق اختلاف الروايات وتخالفها واضطرابها وقلق كلماتها في مواضعها من الكلام على ما زعم أنه قرآن نزل في قراء بئر معونة، وعلى ما زعم في (لو أن لابن آدم واديًا) من كونه قرآنًا نزل من عند الله بالوحي القرآني وقرأه الناس، ثم نسخ بما يتضح به بطلان هذا الزعم وما ضاهاه من المزاعم.

تتمة في الكشف عن وهن رواية (الشيخ والشيخة):

ونحن نتمم الكلام فيما ساقه السهيلي -رحمه الله- في روضه من رواية (الشيخ والشيخة) وما وقع فيها من تخالف

واختـلاف ليتضح أن هذا كله نمط واحـد أريد به دغدغة الثقة بإعجـاز القـرآن العظيـم، ليكـون ذلـك بابًا من أوسـع أبواب الطعـن في أن القرآن الكريم كتاب أنزلـه الله على عبده محمد ﷺ معجـزة صادقة الدلالة على صدقه ﷺ في رسـالته الخاتمة الخالـدة، وأنه تحـدى الإنس والجن أن يأتـوا بمثله في هدايته وروعة بيانه وعلو أسلوبه، فعجزوا جميعًا، وكَعُّوا عن محاجته بالدليل والبرهان ولجئوا إلى السـيف وسفك الدماء، فقهرهم الله وأرغـم أنوفهم، وأذلهم بالهزائم النكراء المتكررة، هزيمة في إثر هزيمة.

وقد بينا بيانًا شـافيًا أن ألفاظ ما زعموه آية قرآنية نزلت في وجـوب حد الرجم لمن زنى بعد إحصان في رواياتهم «الشـيخ والشـيخة إذا زنيـا فارجموهما ألبتة نـكالًا من الله» لم تكن قط مـن ألفاظ القرآن ولا ألفاظ الحديث الشـريف، فلم يسـتعملا كلمة (الشـيخة) فـي معني الإحصان ولا كلمة (الشـيخ) في هذا المعنـى، وكذلك كلمة (البتة) لم ترد في القرآن الحكيم ألبتـة، لا فيما ثبتت قرآنيته بالتواتر ثم نسـخ، ولا فيما أحكم فلم ينسخ منه شيء.

وهـذا وجـه إن لم يدل صراحة على بطـلان الرواية فهو دال على اسـتبعاد نزول آيـة قرآنية في زعم من رواهـا قرآنًا بألفاظ طرحها القرآن والحديث فلم يسـتعملاها في المعنى المقصود للرواية.

وهـذه وجهة لفظية ترجـع إلى خصائص القـرآن في ألفاظه وملاءمتهـا فـي الفصاحة ولطـف الأداء، وهي كافيـة في إلقاء الشك في قرآنية هذا الكلام.

تعمد البخاري ترك لفظي (الشيخ والشيخة) من الحديث:

ويؤيـد ذلـك تأييـدًا واضحًا أن الإمـام البخاري وهو سـيد المحدثيـن فـي صحـة سـنده تـرك هذيـن اللفظين (الشـيخ والشـيخة) وطرحهما من روايته عمدًا كما قال شارحه الحافظ ابـن حجر، وهذا يدل دلالة بينة على أن الإمام البخاري -رحمه الله- لم ير أن هاتين اللفظتين (الشيخ والشيخة) من الحديث، ولا أن النبي ﷺ قالهما، لا على أنهما قرآن نزل ثم نسـخ، ولا على أنهما غير قرآن.

قـال البخـاري: حدثنا علي بـن عبدالله، حدثنا سـفيان عن الزهـري، عن عبيد الله عن ابـن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال عمر: لقد خشـيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، ألا وإن الرجـم حق على من زنى وقد أحصن إذا قامت البينة، أو كان الحمل أو الاعتراف.

قـال سـفيان: كذا حفظـت. ألا وقـد رجم رسـول الله ﷺ ورجمنـا بعده فهـذا الحديث وهو من أعلى وأرفع الأسـانيد لم يذكر فيه (الشـيخ والشـيخة) ومعناه كله منصب على إثبات حـد الرجـم للمحصن، وهو أمـر مجمع عليه من الأمة سـلفها

وخلفها، ولم يشـذ عن هـذا الإجماع إلا طوائـف من الخوارج والمعتزلـة، فإنهم أنكروا حـد الرجم، وقالوا لـم يكن الرجم في كتـاب الله، وقول عمر -رضي الله عنه- : فيضل عن فريضة أنزلهـا الله يحتمل أن المـراد من إنزال الله إياهـا وحيه بها إلى نبيـه محمد ﷺ وحيًا غير قرآني، فتكـون فريضة الرجم ثابتة بوحي السـنة، ويدل لذلك قول عمر -رضي الله عنه- : ألا وإن الرجـم حق على من زنى وقد أحصن، بل يجب حمل كلام عمر على هذا الوجه السديد.

وهـذه الحقية للرجم لا يلزم أن تكون ثابتة بنص قرآني، بل يكفـي فيهـا أن تكون ثابتة عن النبـي ﷺ في حديث صحيح، كما يستفاد ذلك من قوله ﷺ: «ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه» (مسند احمد).

وفـي قول عمر رضـي الله عنه: ألا وقد رجم رسـول الله ﷺ ورجمنا بعده ما يقوي ما ذهبنا إليه من فهم قوله: فيضلوا بترك فريضـة أنزلها الله، لأن معناه: فيضلـوا بترك فريضة أوحي بها الله إلـى رسـوله ﷺ بضرب مـن ضروب الوحي غيـر القرآني، فقام ﷺ بتنفيذ ما أوحى به الله من حد الرجم، واتبعه من بعده الراشدون من خلفائه والمتقون من ولاة أمر أمته ﷺ.

فالبخاري -رحمه الله- لم يذكر في روايته الثابتة الصحيحة (الشـيخ والشيخة) لأنهما لم تثبتا عنده، لا لأنهما سقطتا من روايته، كما تقوله عليه بعض من يجري وراء السراب.

وإخراج الإسماعيلي لهذا الحديث من طريق الفريابي عن شيخ البخاري علي بن عبدالله وفيه: وقد قرأناها: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة» لا يلزم البخاري صحة هذه الرواية، ولهذا قال ابن حجر: ولعل البخاري هو الذي حذف ذلك عمدًا، ولكن ابن حجر لم يعلل لتعمد ترك البخاري لهذين اللفظين، ولم يوجه تعمد البخاري حذفه لهذه الزيادة التي جاء بها من رواية الإسماعيلي من رواية جعفر الفريابي، والظاهر أنها لم تصح عند البخاري، ولذلك تعمد حذف هذين اللفظين.

توهيم النسائي سفيان في ذكر لفظ (الشيخ والشيخة) يؤيد حذف البخاري لهما عمدًا لعدم ثبوتهما عنده:

ويؤيد صنيع البخاري في تعمده حذف هذه الزيادة لعدم صحتها عنده أن النسائي أخرج هذا الحديث عن محمد بن منصور، عن سفيان كرواية جعفر الفريابي، أي زيادة (الشيخ والشيخة) وقد عقب النسائي على ذلك فقال: ما أعلم أحدًا ذكر في هذا الحديث (الشيخ والشيخة)، غير سفيان، وينبغي أن يكون وهم في ذلك، ويؤيد توهيم النسائي لسفيان في ذكر هذه الزيادة قول الحافظ ابن حجر: وقد روى الأئمة هذا الحديث من رواية مالك، ويونس، ومعمر، وصالح بن كيسان وعقيل وغيرهم من الحفاظ عن الزهري فلم يذكروها -أي

الزيادة (الشيخ والشيخة)، ووقوع الزيادة في الموطأ من رواية يحيي بن سعيد، عن سعيد بن المسيب لا يقاوم عدم ذكرها من رواية الجماعة وفي طليعتهم الإمام مالك -رحمه الله-.

وقول عمر -رضي الله عنه-: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها في آخر القرآن معارض بما جاء في حديث أبي بن كعب عند النسائي والحاكم من قوله: ولقد كان فيها -أي في سورة الأحزاب- آية الرجم (الشيخ والشيخة) لأنها إذا كانت موجودة في سورة الأحزاب فكيف لم يعرفها عمر مكتوبة فيها؟ ويقول: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها في آخر القرآن.

وفي رواية عنه قد قرأناها: الشيخ والشيخة، وهذا يدل على أن الذين قرءوها جماعة فأين ذهبت؟ وكيف يخشى عمر بن الخطاب قالة الناس ـ وهو من هو في قوة الدين، وشدة الشكيمة وصلابة الشوكة ومضاء العزيمة، وشدة البأس ـ في أمر يجب عليه أن يقوم به ولو كان في ذلك حتفه، وجميع مواقف عمر في الإسلام تشهد بأن هذا بعيد جدًا عن خلائقه وأخلاقه.

حديث زيد بن ثابت ورده على مروان يدلان على عدم قرآنية (الشيخ والشيخة):

وليس في حديث زيد بن ثابت أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (الشيخ والشيخة) ما يشعر قط أن هذا قرآن منزل من عند الله، وزيد بن ثابت أكثر كتاب الوحي لزوما لرسول الله ﷺ

وأعظمهم حظًا في كتابة وحي القران، فلو كان الذي سمعه من رسول الله ﷺ قرآنًا لأمره النبي ﷺ أن يكتبه في المصحف.

وفي حديث خالة أبي أسامة بن سهل أنها قالت: لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم، ولم يبين هذا الحديث نص الآية المزعومة، وقد جاء في هذه الرواية زيادة «بما قضيا من اللذة» وهذه زيادة لا وجه لذكرها، لأن قضاء اللذة ليس خاصًا بالشيخ والشيخة، فهي زيادة تشير إلى ضعف الرواية، كما أن في هذه الزيادة «بما قضيا من اللذة» إلى جانب أنها لفظة لم تعهد في ألفاظ القرآن واستعمالاته، فسبيلها سبيل لفظي (الشيخ والشيخة)، كما أنها بعيدة عن مواقعة الأدب اللفظي والمعنوي.

وقد روى أبوعبيد القاسم بن سلام حديث خالة أبي أسامة بن سهل فقال بعد سرد سنده: عن أبي أسامة بن سهل أن خالته قالت: لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم: «الشيخ والشيخة فارجموهما ألبتة بما قضيا من اللذة».

وأبوعبيد صاحب طامات في هذا الموضوع، رواها عنه السيوطي في الإتقان.

وفي حديث مروان بن الحكم عند النسائي أنه قال لزيد بن ثابت: ألا نكتبها في المصحف؟ قال زيد -رضي الله عنه-: لا، ألا ترى أن الشابين الثيبين يرجمان، وهذا يفيد أن زيد بن ثابت لم يتحقق عنده أن ما سمعه من رسول الله ﷺ من قول

(الشيخ والشيخة) قرآن تجب كتابته في المصحف، ولهذا جاء رده على مروان بأن هذا الكلام الذي يزعم أنه قرآن لا يتفق معناه مع واقع التشريع المجمع عليه في حد الثيب، سواء أكان شابًا أم شيخًا، فتخصيص الرجم بالشيخ والشيخة لا وجه له، وهذا يخرجه عن كونه قرآنًا تجب كتابته في المصحف.

وقد جاء في هذا الحديث أنهم ذكروا ذلك فقال عمر -رضي الله عنه-: أنا أكفيكم فقال: يا رسول الله أَكْتِبْنِي آية الرجم، فقال ﷺ: «لا أستطيع».

وهذا يشبه أن يكون قاطعًا في أن ما يزعم من قولهم: (الشيخ والشيخة) قرآن نزل ثم نسخ كلام لا يعتمد فيه على شبه دليل، لأن قول عمر -رضي الله عنه- لرسول الله ﷺ: أكتبني أو اكتب لي، ومعناهما: ائذن لي أن أكتبها، وهذا بالقطع قبل أن تنسخ، لأنه لا يعقل من عمر ولا من غيره أن يطلب من رسول الله ﷺ أن يأذن له في كتابة ما نسخ، وإذا كان هذا الطلب من عمر قبل النسخ فلماذا قال له النبي ﷺ: «لا أستطيع»؟ وفي رواية كأنه كره ذلك، ومن العجيب أن عمر -رضي الله عنه- هو الذي كشف عن حقيقة ما يدل على أن هذا الكلام (الشيخ والشيخة) لايمكن أن يكون قرآنًا، فقال كما ذكر ابن حجر في الفتح: ألا ترى أن الشيخ إن زنى ولم يحصن جلد، وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم، كما قال زيد بن ثابت.

قال ابن حجر معقبًا على ذلك: فيستفاد من هذا الحديث السبب في نسخ تلاوتها لكون العمل على غير الظاهر من عمومها، ولو أنصف ابن حجر -رحمه الله- ودقق في البحث لقال: ويستفاد من هذا الحديث أن هذا الكلام (الشيخ والشيخة) ليس بقرآن منزل من عند الله لإجماع الأمة على العمل بخلافه.

ولعل وجه سؤال عمر النبي ﷺ أن يأذن له في كتابتها أنه -رضي الله عنه- سمع كما سمع زيد بن ثابت من رسول الله ﷺ يقول: (الشيخ والشيخة) فتوهما لأول وهلة أن هذا من القرآن، فأما زيد فسكت لأن النبي ﷺ لم يأمره في شأنها بشيء حتى قال له مروان: لم لا تكتبها في المصحف؟ فرد الحصيف العقول بما ينفي أنها قرآن يكتب في المصحف لمخالفتها شريعة حد الرجم، وأما عمر -رضي الله عنه- فطلب من النبي ﷺ أن يأذن له بكتابتها عنده خشية أن يطول بالناس زمان فيتركوا فريضة الرجم ويضلوا بتركها، ولم يرد عمر -رضي الله عنه- أن يأذن له النبي ﷺ بكتابة ما سمع منه أنه قرآن منزل من عند الله، ولو كان ما سمعه عمر قرآنا لما قال له النبي ﷺ: «لا أستطيع» كارهًا لذلك.

ويبين ذلك ما أخرجه ابن الضريس في فضائل القرآن من طريق يعلى بن حكيم عن زيد بن أسلم أن عمر خطب الناس، فقال: لا تشكوا في الرجم، فإنه حق، ولقد هممت أن أكتبه في المصحف فسألت أبي بن كعب، فقال: أليس أنني وأنا

استقرئها رسول الله ﷺ فدفعت في صدري، وقلت: أتستقرئه آية الرجم وهم يتسافدون كما تتسافد الحمر[٣].

قال ابن حجر: وفيه إشارة إلى بيان السبب في رفع تلاوتها وهو الاختلاف لكون العمل على غير ظاهر عمومها، ولو قال ابن حجر: بل فيه إشارة إلى عدم قرآنيتها لكان أصرح في الحق وأجدر به في شهرته حافظًا للسنة وأحاديثها.

وهذا الاختلاف كما أوضحنا يوجب كون هذا الكلام ليس بقرآن، وإلا لو كان قرآنًا ما منع من استقراء رسول الله ﷺ أي مانع من مفاسد المجتمع مهما بلغ سوء تلك المفاسد، لأن رسالة الإسلام إنما جاءت لإصلاح مفاسد المجتمعات الإنسانية، فإنكار عمر على أبي بن كعب -رضي الله عنهما- استقراء رسول الله ﷺ آية الرجم المزعومة بحجة وجود هذه المفسدة في المجتمع مما لا وجه له، ومن ثم يكون ثبوت هذا الإنكار عن عمر غير مسلم وقول ابن حجر: رجاله ثقاتٌ توثيقٌ للسند، وتوثيق السند لا يدل على صحة المتن.

ومما يقوي بطلان رواية (الشيخ والشيخة) ما جاء في حديث البخاري الطويل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- الذي ساق فيه حديث السقيفة، أن عمر -رضي الله عنه- لما رجع من حجته التي لم يحج بعدها جلس على المنبر يوم الجمعة فقال بعد أن أثنى على الله بما هو أهله: إن الله بعث محمدًا ﷺ

(٣) تتسافد أي تتزاوج (تكملة المعاجم العربية). (المجلة).

بالحق وأنزل الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، وأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف.

والمتأمل في هذه العبارة في ضوء ما قدمناه من البحث يرى فيها عدة أمور:

أولاً ـ أن عمر –رضي الله عنه– قال: فكان مما أنزل الله آية الرجم، ولم يذكر نص ما زعم أنه آية منزلة في كتاب الله، وقد علمنا بما سبق من البحث أن الكلام الذي يذكر فيه (الشيخ والشيخة) لا يمكن أن يكون هو المعني بقوله: فكان مما أنزل آية الرجم، لأن هذا قد ظهر بطلانه بما لا يترك مجالاً للشك في هذا البطلان، وليس في موضوع النزاع كلام آخر غير رواية (الشيخ والشيخة) وقد علمنا أن البخاري تعمد حذف هذا الكلام لبطلانه عنده وقول عمر ـ إذا صح عنه ـ: فكان مما أنزل الله آية الرجم يمكن تأويله بأن المراد به حكم الرجم، وتسمية هذا الحكم آية من باب التأكيد لثبوته، ويدل لصحة هذا التأويل قول عمر بعده في هذه الرواية: إن الرجم حكم ثابت، نفذه رسول الله ﷺ ومن بعده من الراشدين، ومن تبعهم من ولاة الأمر المهتدين بهدي رسول الله ﷺ.

وثبوت حكم فريضة الرجم حق لا يمتري فيه مؤمن، والذين أنكروه من بعض طوائف الخوارج والمعتزلة حائدون عن صراط الله الذي أنزل على عبده محمد رسول الله ﷺ السنة كما أنزل القرآن، وكل حكم شرعي يثبت بالسنة سندًا ومتنًا هو في وجوب الإقرار والعمل بمقتضاه كالأحكام الثابتة بالقرآن الكريم، لهذا خشي عمر إن طال بالناس زمان أبعدهم عن عهد رسول الله ﷺ، وعن عهود الراشدين المهديين أن يجترئ مجترئ فينكر فريضة الرجم؛ لأنه لم يجده في الكتاب مسطورًا بين آياته المتعبد بتلاوتها، المتحدى بها، فيضل بترك فريضة الرجم وهي منزلة من عند الله على رسوله ﷺ في تشريع السنة المطهرة.

ومن ثم يتبين أن إنزال الفرائض على رسول الله ﷺ الملزم للأمة بمتابعتها له ﷺ ليس بلازم أن يكون قرآنًا متعبدًا بتلاوته متحديًا للجاحدين هدايته، لأن تنزيل الفرائض كما يكون بالقرآن يكون بالسنة الصحيحة سندًا ومتنًا، وقد أبنا هذا المعنى بيانًا شافيًا في كتابنا (سماحة الإسلام).

ثانيًا: جاء في هذا الحديث قوله: والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن، من الرجال والنساء إذا قامت البينة، والذي نفذه رسول الله ﷺ عمليًا وقاله أمران: هما الرجم والتغريب، والذي في الرواية المزعومة (الشيخ والشيخة) هو الرجم فقط، فالجمع بين الرجم والتغريب مذكوران في

القرآن بواسطة الأمر باتباع الرسول ﷺ، وما كتبه على عباده، فالكتاب في قوله (أنزله الله في كتابه) أي فيما كتبه على عباده، قال ابن حجر: وقيل المراد به القرآن، وهو المتبادر، وقال ابن دقيق العيد: والأول أولى.

تأويل قول عمر: «والرجم في كتاب الله حق»:

وهذا الكلام إن أريد به أن الرجم في كتاب الله، أي في حكمه وفرضه، وما كتبه على عباده حق فهو حق لا مرية فيه، ويدل لذلك قول ابن حجر: وقوله عند قول عمر: «والرجم في كتاب الله حق» أي في قوله تعالى:

﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٥)

فقد بين النبي ﷺ أن المراد بالسبيل في هذه الآية: رجم الثيب وجلد البكر، وهذا صريح في حقيقة الرجم في كتاب الله هو بيان النبي ﷺ لإجمال القرآن، وليس معناه أن آية قرآنية نزلت بوحي قرآني مستقلة تبين حكم الرجم.

وإن أريد أن الرجم في كتاب الله أي في القرآن فهذا ما لم يثبت قط ثبوت القرآن بخصائصه الإعجازية، والكلام الذي زعم أنه قرآن (الشيخ والشيخة) ليس فيه: إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف، والعموم الذي في هذا الكلام أن كل شيخ وشيخة إذا زنيا كان حكمهما الرجم تبطله البداهة الشرعية، إذ ليس كل شيخ وشيخة إذا زنيا كان حكمهما الرجم، وقد سبق أن هذا ورد في كلام عمر وزيد بن ثابت، ومن

هنـا علل ابن حجر تعمد البخاري حذف (الشـيخ والشـيخة) وقد أبطلنـا هذا التعليل ورجحنا أن تعمـد البخاري حذف هذا الكلام كان لبطلانه وعدم ثبوته.

ولعل بعض المتشبثين بالروايات لصحة أسانيدها يقولون: إن تعيين آية الرجم المقصودة في كلام عمر ولم يذكر نصها في هذا الحديث هي مـا جاءت صريحة في روايات أخرى بأنها (الشـيخ والشـيخة) قلنا في الرد على هؤلاء المتعلقين بخيط العنكبوت: قد بطل أن يكون (الشيخ والشيخة) قرآنا منزلًا ثم نسخ.

وذكرنـا أن أظهر وجـوه بطلانه كراهية النبـي ﷺ أن يأذن لعمر بكتبها، وقول عمر -رضي الله عنه-: ألا ترى أن الشـيخ إذا زنى ولم يحصن جلد، وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم، ومعنى ذلك أن الحكم بأن الشـيخ والشيخة إذا زنيا فحكمهما الرجم حكم غير صحيح، فلا يصح أن ينزل به قرآن.

وإلـى هنـا نكـف عنـان القلم عـن الحديـث في (الشـيخ والشـيخة) وأنه كلام قرآني نزل ثم نسـخ، غير أننا وجدنا أن الروايـة قد نسـبت إلى عمر -رضي الله عنـه- في هذا الحديث كلامًا اتبعه في زعم الرواية لكلامه في آية الرجم، وهي (الشيخ والشـيخة) فاصـلا بين الكلاميـن بحرف الترتيـب والمهلة، فيقول: ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله أن لا ترغبوا عن آبائكم، فإنه كفـر بكم أن ترغبوا عن آبائكم، أو إن كفرًا بكم أن ترغبوا عن آبائكم.

شأن كل ما جاء مما زعم أنه (آية الرجم) هو شأنها في القطع بعدم قرآنيتها

ونحن نتساءل: ما شأن هذا الكلام المزعومة قرآنيته الذي يصله عمر -في زعم الرواية- بقصة الرجم وآيتها التي لم تنزل قط في القرآن الكريم.

ونجيب عن تساؤلنا الذي قد يتساءله غيرنا فنقول: إن شأن هذا الكلام هو شأن (الشيخ والشيخة) في زعم قرآنيته ثم نسخه كما نسخت آية الرجم.

والمتأمل في هذا الكلام يرى الشك يحوطه من أكنافه، والقلق في ألفاظه يستحوذ عليه، وهو خلي من سماحة الاتساق القرآني في أسلوبه وعباراته، وليس فيه رائحة من الجزالة البيانية والرونق القرآني الذي هو خصيصة القرآن.

والرواية نفسها تذكر النص بالشك، أي أن الراوي لا يدري هل النص هو الشق الأول من العبارة أو الشق الثاني منها، لكن الحافظ ابن حجر قد زاد في الطنبور نغمة نشاز فقال: بالشك في رواية معمر، لكن معمرًا قال: لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم، أو إن كفرًا بكم أن ترغبوا عن آبائكم.

وهذا نص مخالف للنص الأول مع وجود الشك فيهما، أفيجوز أن هذا الكلام المتخالف المختلف مدخول الشك قرآنٌ معجز أنزل وقرئ ثم نسخ؟ هذا محال، وهو من أبطل الباطل.

ومن غرائب هذه الرواية أنها أقحمت كلامًا على لسان عمر

لا تظهــر له أدنى صلــة بالكلام الذي جاء فــي أحضانه، فقالت الروايــة على لســان عمــر: ألا ثــم إن رســول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطري عيســى بن مريم، وقولوا عبد الله ورســوله» (مسند أحمد).

هــذا أســلوب في الــكلام يــؤدي إلــى التعميــة والغموض، والتفكك بين المعاني، والســامع لهذا الكلام متتابعًا لا يفهمه في ربط بعضه ببعض، وهو في غرابته أعجب من أن ينسب إلى عمر بقوله للناس وهو على المنبر.

محاولة ابن حجر تلمس ربط بين هذا الكلام وآية الرجم المزعوم قرآنيتها:

وقــد حاول ابن حجــر أن يلتمس له روابط تســلكه في قرن واحد، فقال: والنكتة في إيراد عمر هذه القصة أنه خشي الغلو على من لا قوة له في الفهم أن يظن بشــخص استحقاقه الخلافة فيقوم في ذلك مع أن المذكور لا يستحق، فيطريه بما ليس فيه فيدخل في النهي.

ثم قال ابن حجر: ويحتمل أن تكون المناســبة أن الذي وقع فــي مدح أبي بكر ليس في الإطراء المنهــي عنه، ومن ثم قال: ليس منكم مثل أبي بكر.

ثم قال ابن حجر: ومناسبة إيراد عمر قصة الرجم والزجر عن الرغبة عن الآباء للقصة التي خطب بسببها، وهي قول القائل: لو مات عمر لبايعت فلانًا، أن عمر أشــار بقصة الرجم إلى زجر من

يقول: لا أعمل في الأحكام الشرعية إلا بما وجدته في القرآن، وليس في القرآن تصريح واشتراط التشاور إذا مات الخليفة، بل إنما يؤخذ ذلك من جهة السنة، كما أن الرجم ليس فيما يتلى من القرآن وهو مأخوذ من طريق السنة- تأمل هذه العبارة جيدًا لتدرك أن الرجم لم ينزل فيه قرآن قط- ثم قال ابن حجر: وأما الزجر عن الرغبة عن الآباء فكأنه أشار إلى أن الخليفة يتنزل من الرعية منزلة الأب، فلا يجوز لهم أن يرغبوا إلى غيره، بل يجب عليهم طاعته بشرطها كما تجب طاعة الأب.

وهذا كله كلام يظهر أن ابن حجر شعر بما فيه من تعسف ومعاناة، فأراد أن لا يلزم به فقال كالمعتذر عن ضعفه: هذا ما ظهر لي من المناسبة، والعلم عند الله تعالى.

ضعف ربط ابن حجر وصواب الرأي في نظرنا على فرض ثبوت هذا عن عمر -رضي الله عنه-:

ونحن نقول للحافظ: إن هذا الكلام الذي أراد به أن يلائم بين قصص مختلفة متخالفة في الأحكام والآثار والوسائل كلام عسير الفهم على أوساط الناس، مغلق على عامتهم، فهو متعسف التأويل متمحل المخارج، لا تطمئن إليه العقول المتفقهة في الدين والعلم والمعرفة.

ولعل الصواب في هذا الكلام أنه قيل مبعضًا في مرات من المناسبات صالحة، فهو بمنزلة أحاديث متعددة الروايات، مختلفة المساقات، جمعها الحفاظ الرواة المشهورون

بالحفظ الفائق في سوقها لتلاميذهم والآخذين عنهم، فتوهم بعض الرواة أنها حديث واحد قيل في زمن واحد، واشتمل على جميع ما ذكر فيه من قصص وأحاديث وردت في أحداث متفرقة لمناسباتها في بعض متعلقاتها تناسبًا بعيد التقارب بين حقائقها وعناصرها، والعلم عند الله.

***

وبهذا التحقيق الذي عرضنا في جلبابه ما قيل عن كلام زعم أنه قرآن نزل من عند الله بوحي قرآني ثم نسخ، ساقنا إليه السهيلي -رحمه الله- باستطراد في الحديث عن شهداء بئر معونة من القرّاء وما زعمت روايات الصحيح عن أنس- موقوفًا- أنه قد نزل في شأنهم قرآنٌ قرأه الناس، ثم نسخ، إلى الحديث عما زعم قرآنيته من كلام النبي ﷺ وقوله: (لو أن لابن آدم واديين من ذهب) إلى الحديث فيما زعم أنه قرآن نزل في حكم الرجم (الشيخ والشيخة) ثم نسخت تلاوته وبقي حكمه.

وقد بقيت للحديث كمالة لا بد من ذكرها استيفاء لبحث الموضوع، لأن الكلام لم يقف بهذه المزعومات عند هذا الحد، ولكن فئة ممن يذكر في أهل العلم تزيدت تزيدًا عجيبًا نرى من الضروري التعرض له ورد باطله.

ففي الكلام عن (لو أن لابن آدم واديينِ) نقل السهيلي عن ابن سلام أن هذا الكلام كان آية من سورة يونس بعد قوله -تعالى-:

﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٢٤)

كلام باطل يرويه أبوعبيد بن سلام تتناقض رواياته:

وقد عورض هذا القول الباطل بما رواه ابن سلام نفسه من حديث أبي موسى الأشعري، قال أبو عبيد القاسم بن سلام- كما في إتقان السيوطي- حدثنا حجاج، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي حرب بن أبي الأسود، عن أبي موسي الأشعري قال: نزلت سورة نحو (براءة) ثم رفعت، وحفظ منها: إن الله سيؤيد هذا الدين بقوم لا أخلاق لهم، ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديًا ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب.

هذا حديث مظلم، وهو من أبطل الباطل، وأمحل المحال، لأنه يجعل هذا الكلام المزعومة قرآنيته من سورة نحو سورة (براءة) نزلت ثم رفعت، ولم يحفظ منها شيء على طولها وكثرة كلامها سوى هذه الكليمات القليلات، على كثرة عدد أصحاب رسول الله ﷺ بعد نزول سورة (براءة) المدنية، وهذه السورة المزعومة لا بد أن تكون- في نظر زاعميها- قد نزلت بعد سورة (براءة) لأنها شبهت بها في حجمها وتعداد آياتها، وكانوا -رضي الله عنهم- يعدون بعشرات المئات، فقد قال الإمام أبو زرعة: توفي رسول الله ﷺ عن مائة وأربعة وعشرين ألفًا من الصحابة، فهل يعقل أن هذا العدد أو نصفه أو ثلثه، أو

ربعه، أو خمسه، بل أو عشره تنزل على نبيهم ﷺ وهم أحرص الناس على أن لا يفوتهم حرف مما نزل عليه سورة في قدر سورة (براءة) والنبي ﷺ بين أظهرهم ينزل عليهم متتابعًا، لا يفتر ولا ينقطع، ولا يحفظ أحد منها إلا هذه الكليمات؟ هذا شيء لا سبيل إلى تصديقه وقبوله عقلًا.

وأي الروايتين أصدق حديثًا وكلاهما عن ابن سلام في روايتها، فهذه ذكرنا روايتها عن إتقان السيوطي عن ابن سلام، وتلك ذكرنا روايتها عن السهيلي في روضه إذ يقول: إن هذا الكلام كان آية في سورة يونس بعد فاصلة من فواصل آياتها التي وصفت الدنيا وسرعة زوالها وتقضيها، وفنائها فناء صوره رب العزة تبارك وتعالى في جملة موجزة إبدع إيجاز فقال: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ (يونس: ٢٤) ثم جاءت فاصلة الآية لتبعث في أهل الإيمان حركة عقلية، وتثير في قلوبهم ثورة فكرية تطلب إليهم التدبر في أمر هذه الدنيا بما فيها من زخرف وزينة ومتاع، وتطلب إليهم أن يتدبروا شأن عظمة الله -تعالى- وجلال كبريائه إذا جرى قضاؤه بانتهاء هذه الحياة بما بلغت من نفوس أهلها وعبيد شهواتها وأحلاس رغائبها حتى توهموها خالدة لا تزول، وأنهم قادرون عليها وعلى التمتع بزينتها وزخرفها، أنزل الله عليها من سماء كبريائه ما جعل زينتها حصيدًا فانيًا كأنها لم توجد بالأمس ساعة افتتان أهلها بها الذين استولت على أفئدتهم، وغطت على مشاعرهم

فاستغرقتهم بالغفلة عن التدبر والتفكر في شأن الله وأخذه للغافلين بغتة؛ لأنها سلبت عقولهم بشهواتها، ثم إذا هي في طرفة عين حصيدًا رمرمًا متساقطًا موطوءًا بأقدام الفناء.

فما نقله السهيلي عن ابن سلام متعارض مع ما رواه ابن سلام من حديث أبي موسى الأشعري وهي رواية متهاوية واهية مظلمة المتن والسند، بل باطلة فاسدة، وهذه جعلت (لو أن لابن آدم واديين) من سورة نزلت من الفضاء إلى الخواء مع طولها وكثرة آياتها كما تزعم هذه الرواية الباطلة دون أن يعلق بحافظة أحد من الصحابة شيء منها سوى هذا الكليمات المعدودات.

والرواية الأخرى التي نسبها السهيلي إلى ابن سلام نفسه تجعل هذا الكلام آية كانت في سورة يونس بعد واسطة عقدها في نعي الدنيا إلى أهلها.

فهل ثمة ما يوحي عقلًا ونقلًا طرح هذا الكلام بجميع رواياته بعيدًا عن حمى القرآن الكريم أكثر من هذا؟

أباطيل أخرى تروى ولا تناقش لإظهار بطلانها:

ومما يزيد في غرابة هذه الروايات ما رواه الحاكم في المستدرك من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» فقرأ ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ (البينة: ١)

ومن بقيتها : لو أن ابن آدم سأل واديًا من مال فأعطيه سأل ثانيًا ، وإن سأل ثانيًا فأعطيه سأل ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير اليهودية ولا النصرانية ، ومن يعمل خيرًا فلن يكفره .

أهذا أسلوب قرآني يا أهل العقول ؟ أفيجوز في شرعة العقل والدين أن يحتفل النبي ﷺ أعظم احتفال بمثل هذا الكلام ، ويخص به رب العزة جل شأنه أقرأ الأمة للقرآن ، الصحابي الجليل أبي بن كعب رضي الله عنه ، ويأمر رسول الله ﷺ أمرًا خاصًا أن يقرأ القرآن على هذا الصحابي العليم سيد القراء في عهده ، فيقرأ عليه هذا الكلام الملفق من جمل وكلمات ، لا هي شرقية ولا غربية ، لا يجمعها زمام ولا يضمها خطام ، أيجد إنسان له أدنى إلمام بمواقع الكلام وتذوق معانيه ، واستطعام أسلوبه رائحة من شميم الهداية القرآنية في هذه الهلهلة المزعومة أنها قرآن .

ولكن ما الحيلة مع هؤلاء الرواة الذين لا يسمحون لأنفسهم بشيء من التعليق على ما يروون ليؤدوا حق النصيحة للأمة المسلمة التي لها في أعناقهم حق الإخلاص بالنصيحة لعامتها وخاصتها .

وحديث المستدرك يزيد الإشكال إشكالات ، فقد جعل هذا الحديث هذا الكلام الملفق المزعوم قرآنًا من سورة البينة

وتسمى سورة (القيمة)، وقد كان هذا الكلام نفسه في بعض الروايات التي سقناها فيما سبق من سورة يونس، وفي بعضها من سورة الخواء التي لم يَعْرف عنها أحدٌ شيئًا سوى أنها كانت مثل (براءة) ولم يحفظ منها سوى هذه الكليمات، ومع تعدد الروايات المقتضية بطلانية أن يكون هذا الكلام قرآنًا نجد الروايات تسوق هذا الكلام مساقات مختلفة متخالفة في ألفاظه وترتيبه مما يحقق أن من المحال أن يكون ذلك قرآنًا نزل من عند الله ثم نسخ.

ونحن ندين بأن من حُمل عليهم هذا الغثاء من الصحابة وأهل العلم واليقين بالقرآن من سلف الأمة بأسانيد مركبة ملفقة برءاء من أنهم قالوا أو رووا شيئًا من ذلك، لأنه كلام لا يمكن أن يكون من ينابيع ما نزل على محمد خاتم النبيين ﷺ.

ومن بدائه ما يكسوه البطلان ثوب المحالية ما ذكر السيوطي في الإتقان إذ قال: قال الحسين بن المناوي في كتابه الناسخ والمنسوخ: ومما رفع رسمه من القرآن ولم يرفع من القلوب حفظه سورتا القنوت في الوتر، وتسميان سورتي (الخلع والحفد).

هذا كلام له أمثلة كثيرة شحنت بها كتب دست على التراث الإسلامي، وكانت مادة سخية لأعداء الإسلام، لا ينضب معينها من المستشرقين وتلاميذهم من الملاحدة المستغربين.. ولا شك عندنا في أن هذا كلام دخيل وضعه الزنادقة واليهود،

وتلقفه البله من ذوي الغفلة وسلامة الصدور، كما تلقفوا أقصوصة الزندقة الغرنوقية التي رمينا عليها بشوب من حميم التحقيق فألقاها في هاوية الفناء.

من البيِّن أن كل ما عرضناه للبحث والمناقشة مما جاء في الروايات سواء أكانت من روايات الصحيح، أم من غيره بزعم أنه قرآن نزل من عند الله، ثم نسخ نصه وبقي حكمه مدفوع بقول الله في القرآن الحكيم:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦)

وهذا إخبار لا يدخله النسخ ولا يدخله الخلف، وهو المعبر عنه عند أهل الأصول بالنسخ لغير بدل، لأن الآية جملة شرطية قطعية الملازمة بين الشرط وجوابه، وهي مقتضية باللزوم العقلي أن كل آية ينسخها الله فلا بد لها من بدل يحل محلها، يكون خيرًا منها في يسر التكليف وسهولة الامتثال وكثرة الثواب، أو مثلها مما يدعو إليه القرآن من هداية وإصلاح ورحمة.

النسخ بغير بديل لم يقع لأنه مخالف لنص القرآن:

قال ابن الحصار: إن قيل كيف يقع النسخ إلى غير بدل، وقد قال الله تعالى:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾

وهــذا خبر لا يدخله خلف ؟ والجواب أن نقول : كل ما ثبت الآن فــي القرآن ولم ينســخ فهــو بدل مما قد نســخت تلاوته ، فــكل ما نســخه الله من القرآن مما لا نعلمــه الآن فقد أبدله بما علمناه ، وتواتر إلينا لفظه ومعناه .

وهــذا جواب ضعيف مســتعجم لأن محل النزاع نص نســخ وبقــي حكمه الخاص ، فكان بمقتضى منطوق الملازمة العقلية في شرطية الآية أن ينزل نص يكون بديلًا عن النص المنسوخ ، وليس فيما زعمت الروايات أنه قرآن نزل من عند الله ثم نسخت منها نصوص كان الباقي منه بديلًا عن النص المنسوخ .

فجــواب ابــن الحصار عــن ســؤاله لا محصل لــه ، والجواب الصحيــح هــو القطع ببطلان كل رواية زعمــت أن قرآنًا نزل من عند الله ثم نســخ إلى غير بديل عنه متواتر النقل عن رســول الله ﷺ مقطــوع بقرآنيتــه ، والنص المنســوخ يشــترط فيه كذلك ثبــوت قرآنيته ثبوتًــا قاطعًا بالنقــل المتواتــر ، والروايات التي جرى في شأنها حديثنا كلها أحادية لا تفيد العلم ، ولكنها تفيد الظــن وتوجب العمل إذا صحت أســانيدها ، ولم تصادم متونها أصلًا من الأصول التي قام على دعائمها الدين ، لأن صحة السند لا يلزمهــا صحة المتــن ، قال الباقلاني في كتــاب (الانتصار) : أنكر قوم هذا الضرب من النسخ لأن الإخبار فيه آحاد ، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها .

والشــرطية في الآيــة المقتضية للتلازم العقلي بين الشــرط

وجوابه توجب أن كل حكم نسخ نصه ومعناه فلا بد من الإتيان بنص بديل عنه متضمن لحكم خير من الحكم المنسوخ في يسره، وسهولة امتثاله، أو كثرة ثوابه، أو تحقيقه لمصلحة أرجح مما كانت في الحكم المنسوخ، أو دفع مضرة كانت في الحكم المنسوخ، أو متضمن لحكم مثل الحكم المنسوخ، وإن كل نص نسخ وبقي حكمه فلا بد من الإتيان بنص بديل عن النص المنسوخ يتضمن نفس الحكم الذي لم ينسخ، وإن كل حكم نُسِخَ وبقي النص الدال عليه فلا بد من الإتيان بنص يتضمن حكمًا خيرًا من الحكم المنسوخ أو مثله.

أما نسخ نص وبقاء حكمه بغير بديل للمنسوخ فهو أمر مخالف بمنطوق الآية فلا يقع، وبهذا قال الإمام الشافعي رضي الله عنه، ونص عبارته في (الرسالة): (وليس يُنسخ فرض أبدًا إلا إذا ثبت مكانه فرض.. وكل منسوخ في كتاب وسنة هكذا).

وهذا هو الحق الذي لا محيد عنه ولا محيص منه، ولا ينبغي لمؤمن بالله ورسوله أن يمتري به.. والله ولي التوفيق والسداد.

غزوة الأحزاب
وهي غزوة الخندق
أسبابها وأحداثها وآثارها

جاءت غزوة الأحـزاب بعد غزوة (أحد) فكانت آخر غزوة هجومية في غزوات أحلاس الشـرك وعبيـد الوثنية المتحجرة الذين كان يسـوقهم الصلف بسـياط الغرور الكذوب والتنفج بالقـوى المادية، وكانت في هذه الغزوة هزيمة الشـرك البليد بحشـوده وجحافله، وقد تعـرّى عن سـوآته القبيحة، وهزيمة الشرك المتستر بالغطرسة اليهودية التي أحرق أكبادها الحسد القاتل والحقد الأسود.

تسمية هذه الغزوة غزوة (الأحزاب) أوفق بلمحة القرآن:

وقد لمح القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾

(الأحزاب: ٢٢)

إلـى تسـمية هـذه الغزوة باسـم (الأحـزاب) الـذي يصور جوهرهـا فـي تكالب شـراذم المشـركين وفجـار اليهود على المجتمع المسلم ليستأصلوه من فوق الأرض.

وتسـمى هذه الغـزوة في مؤلفـات الغزوات والسـير غزوة (الخندق) تسـمية لها باسـم أول (تطور) في وسـائل الدفاع

الحربي أخذ به الإسلام في جهاده القتالي قبل أن يعرفه العرب، ليضع لمجتمعه معلمًا من معالم الحركة المتجددة في ظل الترقي والأخذ بكل جديد صالح تتطلبه الحياة الثائرة المتجددة، باعتباره من أهم وأعظم جوانب التأهب والاستعداد لمواجهة أعداء الحق في منهج الجهاد القتالي لرسالة الإسلام، إذا ألجئ إليه المجتمع المسلم للدفاع عن دينه وعقيدته وكيانه، وإعلاء كلمة الله، ونشر رسالة الهدى والخير والإصلاح.

وقد عكس الإمام البخاري الوضع الإشاري الذي لمح إليه القرآن المجيد، فقال في الترجمة لها: بأن غزوة الخندق وهي الأحزاب، ولو عكس فقدم ما أخر، وأخر ما قدم لكان أوفق بلمح القرآن الحكيم.

وفي صنيعه هذا إيثار لتقديم الوسائل على المقاصد، وكان الأخذ بإشارة القرآن في تسمية هذه الغزوة غزوة (الأحزاب) أو - على الأقل - تقديم هذا الاسم على اسم (الخندق) أحرى وأقعد وأوفق.

لأن هذه التسمية التي أشار إليها القرآن تعبر تعبيرًا صادقًا عن الصورة التي وضع أعداء الله من المشركين وفجار اليهود هذه الغزوة في إطارها للأحداث التي جمعت حشود الشرك وعبيد الوثنية، وأقامت دعائمها على القوة المادية من المؤن والسلاح، وأقامت عناصرها على التكالب المسعور لمهاجمة المجتمع المسلم في داره ومستقر دعوته.

ولعل الإمـام البخاري -رحمـه الله- ومن أخـذ بطريقته آثر تقديم الوسـيلة الجديدة اهتمامًا بالوسائل المحدثة؛ إيماء منه إلـى أن (تطور) الحـروب في حياة الأمم والـدول يتطلب هذه الوسائل المتجددة باعتبارها سببًا من أسباب الأهبة والاستعداد الدفاعي المفاجئ للعدو، فيدهشه ويذهله، ويقلب عليه خططه فـي خوض الحـرب والقتـال، ولهذا قال فرسـان الأعـداء لما رأوا (الخنـدق) وهم يجولون بخيولهم ليشـتبكوا مع كتائب المجتمع المسـلم: إن هـذه مكيدة ما كانت العـرب تعرفها، وكذلـك مما يلتمـس للإمام البخـاري في صنيعه أن الوسـائل مقدمة بالطبع على المقاصد.

كانت هذه الغزوة مليئة بالأحداث والوقائع التي كانت تمثل كثيـرًا من معالم منهج الرسـالة الخالدة في شـدائدها وأزماتها ومحنها، والتي قابلها رسول الله ﷺ وهو القائد الأعظم بأعظم الصبـر وقوة الاحتمال، فكان لأصحابه المجاهدين تحت لوائه أجل قدوة وأعظم أسـوة فيما تطلبته أحداث الغزوة من مواقف تعتمد على العزائم الصادقة والإيمان الراسـخ واليقين الذي لا تزلزله كوارث البلاء والمحن.

هـذا إلى جانب ما كان في أحداثها مـن معالم الغيب الإلهي الـذي يمثل فضل الله تعالى على رسـوله ﷺ وعلى أصحابه في تفريج مضايق النوازل والبلايا التي كانت تمحيصًا لهم وإظهارًا لقوة عزائمهم وإخلاصهم، وليكون فضل الله في تفريج النوازل

والمحن تضميدًا لجراحهم، وبشرى لهم في مستقبل حياة مجتمعهم، وشحذًا لفضائلهم الإنسانية النبيلة، التي رباهم عليها قائدهم الأعظم ﷺ، ولتكون هذه الفضائل هي سلاحهم المعنوي في تحمل لأواء الحياة بصبر صبور، ونضال لا تفل قناته، ولا تخضد شوكته، ولا تغمز كرامته، ولا يطمع في النيل منه الطامعون، وتزداد قوتهم الروحية التي تستمد عناصرها من إيمانهم بالله الذي يرد بها كيد الكائدين، ويهبها من قوة العزيمة ما تتحدى به قوى أعدائها المادية، ومن قوة الإرادة ما تقهر به قوى حشودهم مهما تكاثرت وتكاثفت عددًا وعدة.

ومن ثم كانت المشابه التي وصلت هذه الغزوة بغزوة (أحد) في أزماتها المستحكمة واستحكام شدائدها الضارية، وقسوتها الشرسة دروسًا تربوية كامنة في أحداث (أحد) لاسيما في أسبابها، وتجمع لفائف الشرك المزري بالعقول، والوثنية المنحطة من هنا وهناك، وتأهبهم لمهاجمة المجتمع المسلم تأهبًا بلغ أقصى ما يستطاع التأهب به من رجال وأسلحة ومؤن ليستأصلوه ويستأصلوا دعوته إلى توحيد الله وإقامة منائر العدل على طريق الإنسانية في مسيرتها المقدورة لحياتها، ويوقفوا مد انتشار الدعوة إلى الله التي حمل لواءها بعد الهجرة مجتمع جديد في تكوينه الروحي والمادي مما أغصهم وكشف أغشية قلوبهم وأحرق أكبادهم، وألبسهم لباس الذل والهوان.

بيد أن شدائد (أحد) التي تفتقت عنها وقائعها وأحداثها كانت شدائد تربوية وضعت للمجتمع المسلم ركائز جديدة أقام عليها بناء منهج الرسالة في مستقبل الحياة لتخليص المجتمع المسلم من رواسب التراث الجاهلي الذي كانت آثاره لا تزال قائمة في النفوس، هذا التراث الجاهلي القريب من أنفسهم مما كانت تعتمد عليه الجاهلية في حروبها، وكان هذا التراث يعتمد على القوة المادية وحدها، ولا يعرف غيرها، وهي قوة حشد التجمعات من الرجال، وكثرة السلاح ووفرة المؤن.

وقد كان مظهر هذه القوة المادية التي تصبغ بصبغتها التراث الجاهلي المترسب في حنايا النفوس ماثلاً في غزوة (بدر) و(أحد) وقد عبرت عنه في (بدر) الكتائب المجاهدة بالتعجل لإنهاء المعركة قبل أن تبلغ مداها من النصر المؤزر الذي يقضي على قوة العدو قضاء مبرمًا لا تقوم له بعده قائمة، كما كان ماثلا في الإسراع إلى جمع الغنائم وأخذ الأسرى في (بدر)، وفي عدم الوقوف عند أوامر القائد الأعظم، والتسليم المطلق لمتابعة أوامره ووصاياه في (أحد) في سبيل نصر طائر غير مستقر على أرض صلبة لا تسوخ فيها أقدام المجاهدين في مستقبل الحياة وهم يحملون لواء دعوة الحق التي يقوم بناء صرحها على دعائم التوحيد وهدم صروح الشرك والوثنية، وخاصة إذا كان هذا القائد الأعظم هو رسول الله ﷺ المؤيد

بالوحي، المسدد بتوفيق الله، العليم بمنادح الغيب الذي تجب متابعته في جميع أوامره ووصاياه، متابعة لا ترتد قط إلي شيء من رواسب الجاهلية، تلك الرواسب التي كان من أهداف رسالة الإسلام العمل على تقويضها وتخليص المجتمع المسلم من شوائبها، وتركيبه في عناصره الجديدة تركيبًا لا يجعل لتلك الشوائب المادية المظلمة الجاهلية أدنى سلطان في توجيه الوقائع والأحداث التي تتعرض لها رسالة الإسلام في مسيرتها الخالدة.

تذكير ببعض المشابه بين أحد والأحزاب

ولهذا ظهر شيء من التناقض الغريب في مسلك المجتمع المسلم في غزوة (أحد)، وأول ذلك - كما قدمنا - كان في عدم متابعة ما رآه رسول الله ﷺ من البقاء في المدينة، ومقاتلة أعدائه في طرقاتها وأسطح منازلها، حتى استكره المتحمسون للخروج رسول الله ﷺ ليخرج بهم لملاقاة عدوهم خارجها، فكان لهذه المخالفة التي حملت ذروا من ترسبات التراث الجاهلي، تمثل في حماسة الشباب الذين فاتهم فضل (بدر) - أكبر الأثر في سير الأحداث التي انتهت بأقسى محنة عرفتها غزوات الإسلام.

ثم جاءت مخالفة جمهور الرماة الذين وضعهم رسول الله ﷺ في أماكنهم ليحموا ظهر الجيش، فإنهم لم يكادوا يلمحون النصر يلوح في ميدان المعركة حتى تركوا أماكنهم

وأسـرعوا لجمـع الغنائم مـع المحاربين، ففتحـوا بذلك ثغرة للعدو كر منها على كتائب الإسـلام، فانفرط عقدهم وشاعت بينهم الفوضى، حتى كان بعضهم يقتل بعضًا بغير علم من شدة مـا اعتراهم من الدهش والمفاجأة، ثم فرّوا عن رسـول الله ﷺ وتركـوه في ميدان المعركة وحيدًا، وهو يرمي العدو بقوسـه، حتى تشـظت ونفدت سـهامها وجعل يرميهم بالحجارة، وهو ثابت في مقامه ما يزول عنه قط.

فكانت هذه المخالفة لأوامر رسول الله ﷺ سببًا آخر في وقوع المحنة التي انتهت بالهزيمة، ثم جاءت المخالفة الثانية وكانت ممثلـة في التزيد في الحب العاطفي لرسـول الله ﷺ الذي غطى على الحـب الإيماني المرتبـط أوثق ارتبـاط بالمتابعة الصادقة والتسـليم لأمر القيادة العظمى الفريدة في تاريخ البشرية، حتى انفلقت شـغاف قلوبهم عن أقسـى الجزع وأشـد الهلع المذهل إثر إرجافة الشـيطان وصرخته بأن محمـدًا قتل، فلم يملك أحد منهم أن يتماسك ويثبت ويتثبت، ولكنهم أخذوا عن أنفسهم، وأطلقوا سـوقهم مع ريح الهرب لا يلوون على شـيء ورسول الله ﷺ فـي أخراهـم يدعوهم (إليّ، إليّ) ليردهـم إلى مواقفهم من المعركة، ثم تتابعت الحوادث الممحصة في أزماتها وشـدائدها ومحنها بسـرعة مذهلة لم تترك نفسًـا يتردد، ولا سـلامة إدراك لعقل يفكر، ولا لبطولة شجاع تظهر، ولا لبأس بئيس يفرج هذه الضوائق التي نزلت بكوارثها على كتائب الإسلام.

وقد نزل برسول الله ﷺ من البلاء والجراحات ما لم ينزل بأحد، فكان عبء هذه المعركة القاسية بأحداثها ووقائعها المريرة بآثارها على كاهله وحده ﷺ حتى فاءت إليه فئة من ذوي البأس وصدق الإيمان بعد أن فاءت إليهم أنفسهم وذهب عنهم بعض ما عانوه من الهول المفزع، فأقبلوا إليه ﷺ الواحد تلو الواحد، ووقفوا يذودون عنه ﷺ حتى انصرف العدو عن ميدان القتال، ثم انصرف المسلمون إلى رحالهم ومنازلهم يكمدون جراحهم ويلتقطون أنفاسهم، وعادت إليهم نفحات الإيمان وعادت إليهم قوة عزائمهم، ووقر الدرس التربوي في نفوسهم حتى كان مسيرهم إلى حمراء الأسد وجراحهم تقطر دماً، وكان هذا المسير مجددًا لحياتهم وميلادًا جديدًا لهم.

وهكذا كانت دروس (أحد) في مرارة أزماتها لونًا من التربية البطولية التي لم تهزها أعاصير الهزيمة، فأفاد منها المجتمع المسلم ما كان له من قوة جددت عزائم أفراده، ورفعت شأو إيمانه برسالته ودعوته إلى الحق والخير، وأخرجته نضيج الشخصية راسخ اليقين من أتون الرواسب الجاهلية التي ورثها فيما ورث من تراث هذه الجاهلية التي لم تكن ترى قوة في الحياة يقع بها التغالب سوى القوة المادية، وعلمته أن كتائب الإيمان لا تحارب أعداءها من فجار الكفر بالقوة المادية وحدها، وإنما تحاربهم بقوة الإيمان بعقيدتها وحب التضحية

بمـا تملك من نفس ومال في سـبيل إقامة صرحها الذي يعتمد على ركائز المبادئ الإنسانية الرفيعة.

وهـذا المعنـى التربوي في منهج الرسـالة هو الذي رسـخه درس (أحد) في نفوس أفراد المجتمع المسلم، وهو الذي كان عُدّة هذا المجتمع في غزوة (الأحزاب).

كانـت غـزوة الأحزاب مدرسـة تربية لا تنزل في مسـتواها التربـوي عـن مسـتوى مدرسـة (أحـد)، لكـن دروس غـزوة (الأحزاب) كانت دروسًا من لون آخر غير ألوان دروس (أحد)؛ لأن دروس (أحد) كانت لتربيـة روح اليقظة البطولية الصابرة على بأسـاء الحرب وعض السـيوف ومشارفة الموت في سبيل نشـر الرسـالة والدعوة إلـى الله، والركون إلى صـدق المتابعة لأوامـر القيـادة العظمى، والتحذيـر الزاجر مـن مخالفة أوامر هـذه القيادة، ومحبتها محبـة إيمانية لا تتزيد بثوران العواطف البشـرية التي مسها طائف من الإرجاف المتكذب فخف ثقلها في ميـزان الصبر على لأواء المحن وكـوارث البلاء، وانقلبت انتصاراتها هزائم، وباءت بالفشـل ناكصة علـى أعقابها فرارًا من الموت، ولم تثبت فيها إلا قدم رسول الله ﷺ.

أمـا دروس (الأحـزاب) فكانت تربية نفسـية، تسـتهدف الصبر المرير على المحن النفسـية من الجوع المقعد، وفقدان الزاد المُوئس(٤)، والدأب على أشق الأعمال في حصار مضروب

(٤) الموئس: الذي يسبب اليأس. (المجلة).

مستحكم من العدو، يملك على كتائب المجاهدين منافذ الحياة، مع مكايد المنافقين ودسائسهم الخبيثة وتسللهم لواذًا متعللين بالأكاذيب الفاجرة، إلى جانب حماية النساء والعجزة والأطفال، وهم من وراء المجاهدين في آطام المدينة وحصون المنازل خوفًا عليهم من غدر اليهود وخياناتهم.

وقد كان لهذه الدروس القاسية أعظم الأثر في موقف المجتمع المسلم أمام أعدائه في قوتهم المادية الهائلة التي أعدوها لمهاجمة المجتمع المسلم في داره ومدينته.

تحقيق تاريخ غزوة الأحزاب

ترجيح القول بأن (الأحزاب) كانت في السنة الرابعة

وقد اختلف أهل العلم من المحدثين وأصحاب المغازي والسير في تاريخ غزوة (الأحزاب - الخندق) والسنة التي وقعت فيها، فذهب موسى بن عقبة في مغازيه - وهي بشهادة مالك بن أنس، والشافعي - أصح المغازي، وبقوله قال مالك رحمه الله: إنها كانت سنة أربع من الهجرة، وإلى هذا جنح البخاري في صحيحه إذ اقتصر عليه ولم يذكر غيره وأيده بالحديث المتفق عليه عن عبدالله بن عمر -رضي الله عنهما-: أن رسول الله ﷺ عرضه يوم (أحد) وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه للقتال، وعرضه يوم الخندق (في غزوة الأحزاب) وهو ابن خمس عشرة سنة، فأجازه للقتال مع كتائب المجاهدين فيكون بين العرضين سنة واحدة، وغزوة (أحد) كانت في السنة الثالثة للهجرة، فتكون (الأحزاب - الخندق) في السنة الرابعة.

وأيد هذا القول ولي الدين العراقي فقال: المشهور أن (الخندق - الأحزاب) كانت سنة أربع قال الزرقاني في تعليل قول العراقي: لمزيد إيقان القائلين بذلك، كيف وهُم؛ موسى بن عقبة، ومالك، والبخاري، قال الزرقاني: وقد صحح هذا القول النووي في الروضة.

ومن ثم رجحنا هذا القول فقدمنا (الأحزاب) وحديثها

ووقائعهـا على غزوة (المريسـيع) وهي غـزوة بني المصطلق التي كانت في السنة الخامسة.

وذهـب ابن إسـحاق إلى أن غـزوة (الخنـدق - الأحزاب) كانت في شـوال من السـنة الخامسة للهجرة، ورجح ابن القيم قول ابن إسـحاق في كتابه (الهدي النبوي) وقال: إنه الأصح، وجـزم به الذهبي، واعتمده ابن حجـر، وقال: ويؤيده قول أبي سـفيان للمسلمين لما رجع من (أحد): موعدكم العام المقبل ببدر، فخرج ﷺ من السـنة المقبلة إليها، فلم يأت أبو سفيان مـن أجـل الجدب الذي نزل بهـم، فرجعوا بعـد أن وصلوا إلى عسفان أو دونها.

وليـس فيمـا ادعاه ابن حجـر تأييد لقول ابن إسـحاق ومن تبعـه في مذهبـه، لاحتمـال أن النبـي ﷺ بادر بالخـروج إلى بـدر الموعد في مطلع العـام ليظهر القوة والسـرعة إلى الوفاء بالوعد، لئلا يظن المشـركون بالمسـلمين الضعف والتهرب من لقاء عدوهم في الموعد، ولما لم يحضر أبو سفيان برجاله المحاربين رجع رسـول الله ﷺ، وبلغ أبا سـفيان صنيع رسول الله ﷺ فأخذتـه العزة بالإثم، وجعل يتأهب لملاقاة رسـول الله ﷺ، ووافـق ذلك منـه مواقع الغدر والفجور مـن اليهود الذين ذهبـوا إلى مكة لتحريـض قريش على حربـه ﷺ، وكان ذلك في وسـط سـنة أربع أو في آخرها، فأجابهم أبو سـفيان، إلى ما قصـدوه، وصادف من نفسـه هوى، وكان علـى أهبة الخروج،

وخرج بحشوده وأحباشه ومن وافقه من الأحزاب وجموعهم إلى غزوة (الخندق - الأحزاب)، فلا وجه لما ادعاه ابن حجر من توجيه لقول ابن إسحاق.

وذكر الزرقاني في سياقه لكلام ابن حجر قوله: وقد بين البيهقي سبب هذا الاختلاف وهو أن جماعة من السلف كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذي وقع بعد الهجرة ويلغون الأشهر التي كانت قبل ذلك إلى ربيع الأول، وعلى ذلك جرى يعقوب بن سفيان الفسوي في تاريخه، فذكر أن غزوة بدر كانت في السنة الأولى وأحدًا في الثانية، والخندق في الرابعة قال ابن حجر: وهذا عمل صحيح على ذلك البناء، لكنه بناء واهن مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة، وعلى ذلك تكون بدر في السنة الثانية، و(أحد) في السنة الثالثة، والخندق في السنة الخامسة وهو المعتمد، وهذا الذي اعتمده ابن حجر من أن الخندق كانت في الخامسة غير معتمد ولا مؤيد بدليل، وقد بينا احتمال وقوع الخندق في السنة الرابعة، وقد ذهب إليه أعلام الأئمة، فلا محيص عن الصيرورة إليه.

أسباب غزوة الأحزاب (الخندق) ومن تجمع لها من فُلّال المشركين وفجار الأخابث من اليهود

أما أسباب غزوة (الأحزاب الخندق) فهي معصوبة بغدر اليهود وحسدهم وتحريضهم أعداء المجتمع المسلم على مهاجمته لاستئصاله والقضاء عليه وعلى رسالته ودعوته، فهم الذين أشعلوا نارها، وأوروا زنادها، وحملوا لواءها، وانتهضوا لها ببواعث الحقد الأسود والحسد الذي ملأ صدورهم والغدر الذي كان ديدنهم.

وكان الذي تولى كبر تجميعهم من اليهود لعين السماء والأرض، فرعون الفراعين، وأكفر الكافرين، خبيث الأخبثين حيي بن أخطب النضري، وقد انضم إليه فجارهم: سلام بن مشكم، وابن أبي الحُقيق، وكنانة بن الربيع، وهؤلاء نضريون امتزج الغيظ والحنق بدمائهم، وأذاب الحسد كل ذرة من ذرات آدميتهم، وملأهم ضغينة، وانضوى تحت راياتهم الأذلان الأرذلان، هوذة بن قيس وأبوعمار الوائليان، وكان بعض بني النضير عند إجلائهم قد خلف قومه وذهب إلى خيبر التي خرج منها ركب الشيطان بعد بتدبير أخبث المكر إلى مكة لتحريض بقايا غثاء الإنسانية في قريش ولفائفها على حرب النبي ﷺ ومهاجمته في داره ومدينته، والتقوا بطاغوت قريش وقائدها أبي سفيان بن حرب وغيره من زعماء أشتات الهاربين فرارًا من سيوف المسلمين.

وقال اليهود لهم: إنا جئناكم لنعاهدكم على أن نكون معكم على محمد حتى نستأصله، فقال لهم بلهاء قريش وطغامها: إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ أف للرءوس النخرة الخاوية والعقول البالية المهلهلة، والبلادة المتحجرة البلهاء فقال لهم اليهود وهم منتشون من جهالاتهم البلهاء وبلادتهم الجهلاء، وأحسوا منهم بأنهم لا يحملون عقولا في أدمغتهم تزن الأمور بميزان المعرفة والعلم، ولكنهم قوم كالأنعام بل هم أضل سبيلًا منها: فقالوا لهم وهم آمنون أن يرد لهم قول: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

وأف للعقول الحاقدة التي أعماها الحقد حتى ألقاها بين أحضان الكذب الوضيع فهي تكذب في كذبها، وقد أنزل الله تعالى فيهم تعجيبًا لكل ذي عقل يحمل ذرة من سلامة التفكير من هؤلاء الممرورين سائلين ومسئولين:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٥١، ٥٢) فاجتمعوا واتحدوا لذلك.

ثم خرج من خرج من أخابث اليهود إلى غطفان فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ كما دعوا قريشًا لذلك، وأخبروهم

أنهم سيكونون معهم، وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة كما في رواية الواقدي، وعند غيره أن الذي خرج إلى غطفان هو كنانة بن الربيع، وأنه جعل لهم نصف ثمر خيبر دون التقيد بزمن مخصوص، فاستجاب لهم الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري، وجمع من قومه فزارة ومن تبعهم من أهل نجد ألف مقاتل وخرج بهم معهم.

وخرج أبو سفيان بن حرب في بقايا قريش من الموتورين ومن انضم إليهم من الأحابيش في أربعة آلاف، ووافاهم طليحة بن خويلد الأسدي فيمن أطاعه من قومه، وتجمعوا حتى عسكروا بمر الظهران، ثم جاءتهم سليم مددًا في سبع مئة رجل، يقودهم سفيان بن عبد شمس، وهو أبو أبي الأعور الذي كان مع معاوية في صفين، وبعض الروايات يذكر أن قائد سليم كان أبا الأعور نفسه لا والده سفيان، ثم هوى إليهم الحارث بن عوف المري في أربع مئة مقاتل من قومه بني مرة، قال الزهري: إن الحارث بن عوف رجع ببني مرة فلم يشهد غزوة الأحزاب مري، قال ابن سعد: والقول الأول أثبت؛ لأن هؤلاء المريين شهدوا الأحزاب بقيادة الحارث، وقد هجاه حسان بن ثابت -رضي الله عنه- بذلك.

ويدل على شهودهم لها أن رسول الله ﷺ أدخل الحارث بن عوف قائد بني مرة في مراوضته مع عيينة بن حصن لكسر شوكة الأحزاب عن المسلمين.

وخرجت مع الأحزاب أشجع في أربع مئة رجل يقودهم

مسعود بن رخيلة، وقد بلغت عدة تجمعات الأحزاب عشرة آلاف، وكانوا على أتم الأهبة والاستعداد للقتال، تتوافر لهم إلى جانب كثافة أعدادهم البشرية من المقاتلين غزارة المؤن وكثرة السلاح ووفرة المركوب، إذ كان مع قريش وأحابيشها ومن تبعهم من شراذم القبائل من كنانة وتهامة ثلاث مئة فرس، وألف وخمس مئة بعير.

وقد عقدت قريش لواءها في دار الندوة، وجعلته في يد عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وكان عناج أمر الأحزاب وقيادتها العليا إلى أبي سفيان بن حرب، فهو صاحب أمرها الذي تصدر عن رأيه.

وكان المسلمون ثلاثة آلاف مجاهد في سبيل الله، وهكذا كان التفاوت بين القوى الإسلامية والقوى المعادية لها تفاوتًا عظيمًا، بيد أن كثرة أعداد الأحزاب لا تحزمهم روابط متماسكة، فهم كثرة جوفاء، بينما كانت قلة عدد المسلمين لها عواصم من روابط محكمة أجلها رابطة الإيمان ووحدة الهدف، ومن ثم كان ميزان القوة المؤمنة أثقل وأرجح.

وفاء خزاعة لرسول الله ﷺ وإشارة سلمان بحفر الخندق

ولما استكمل الأحزاب تجمعهم، وأعدوا للسير عدته سبقهم ركب من خزاعة وكانوا عيبة رسول الله ﷺ وأصحاب سره، لا يخفون عليه شيئًا يتعلق بموقفه وموقف أعدائه إلا أعلموه به فخرج هذا الركب إلى المدينة ليلقى رسول الله ﷺ

فيخبـره بخبـر القوم، وأغـذ[٥] الركـب الخزاعي السـير كأنما يطوي الأرض طيًا، فوصل إلى المدينة في أربعة أيام، فأخبروه بما علمـوا من علم القوم الذين تحزبـوا عليه وعلى مجتمعه، فندب رسـول الله ﷺ الناس وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم في الأمر: أيبرز من المدينة خارجها أم يبقى فيها يحارب أعداءه في مداخلها وطرقاتها وأسـطح منازلها؟ فأشار سلمان -رضي الله عنه- بحفر الخنـدق حـول المدينة، فأعجـب ذلك أصحاب رسـول الله ﷺ وأجابـوا مغتبطين، وأحبوا الثبات في مدينتهم ليلقوا عدوهم في مداخلها، وأمرهم رسول الله ﷺ بالجد في حفر الخندق، والجد في حرب العدو الذين تحزبوا لقتالهم، وجاءوهم من فوقهم ومن أسـفل منهـم، ووعدهـم رسـول الله ﷺ بالنصر إن هـم صبروا، واستعانوا بالله في جهادهم لإعلاء كلمة الله.

هـذا موقف من مواقـف المشـابهة التي كانت بيـن (أحد) وأحداثها، وبين (الأحزاب) ووقائعها، وهو موقف يمثل أصدق تمثيـل ما أفاده الصحابة من أول درس في غزوة (أحد)، إذ فريق منهـم خالفوا رأي رسـول الله ﷺ في بقائه فـي المدينة ومقاتلة عـدوه فـي مداخلهـا وطرقاتهـا، وهم الذيـن لم يدركـوا فضل الجهاد في (بدر)، وكان أكثرهم شـبابًا تغلب عليه الحماسـة، فأبوا البقاء في المدينة، وتهيئوا للخروج لملاقاة العدو خارجها

(٥) أغذ السير إذا أسرع وجد فيه (الكنز اللغوي). (المجلة)

خشية أن يُزَنُّوا بالجبن والخوف من مجابهة عدوهم[٦]، فيعيروا بذلك من أعدائهم، واستكرهوا رسول الله ﷺ على الخروج بهم لملاقاة عدوهم خارج المدينة، فكانت هذه المخالفة عنصرًا من عناصر أسباب ما أصابهم من المحن والبلاء في غزوة (أحد).

ولكن هـذا الموقف بعينه يتجدد فـي غزوة (الأحزاب) فيشـاور رسـول الله ﷺ أصحابه المجاهدين هل يخرج بهم إلى عدوهم لملاقاته خارج المدينة؟ أو يبقى بهم في المدينة ليلقـى عدوه المهاجم لـه ولمجتمعه المسـلم في مداخلها ويقاتلـه فـي طرقاتها وأسـطح منازلها؟ وبهـذا يتيح فرصة لكل مسلم كبير أو صغير، رجل أو امرأة أن يكون له نصيب في جهاد القتال، فالرجـال المحاربون يقاتلون المهاجمين من الأعداء في طرقات المدينة وأزقتها ومداخلها، والنسـاء والأطفـال يقذفونهـم بالحجـارة من فـوق أسـطح المنازل ومنافذ البيوت.

وهنـا يتغير الموقـف، ويتذكر الذين كانوا خالفوا رسـول الله ﷺ فـي غـزوة (أحـد) وصمموا علـى الخروج لملاقـاة عدوهم خـارج مدينتهـم، ويتذكـروا أيضا مـا كان من آثار ضـارة لحقت بالمجتمع المسـلم من جـراء موقفهم المخالف لرأي رسـول الله ﷺ في (أحد)، فيرغبوا في البقاء في المدينة وملاقاة عدوهم في مداخلهـا وطرقاتها، وزادهم غبطة بهذا الموقف وتمسـكا به أن

(٦) زَنَّه بكذا: اتهمه به. (المجلة).

سـلمان الفارسـي -رضي الله عنه- أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، فأعجبوا بالفكرة وأحبوا الثبات بالمدينة.

وجـدوا فـي حفـر الخنـدق، وبذلـوا فيـه جهـدًا مضاعفًا حتى أكملـوه قبل أن يصل إليهم العدو بحشـوده، فلما وصل ورأى الخندق وقف دهشًـا مذهولًا، ولم يسـتطع الوصول إلى مجابهتم والاشـتباك معهم في قتال ميداني، واكتفى بالحصار يشـتد فيه ويحيك حلقاته، فاحتملـه المجاهدون بصبر وقوة عزيمة أرغموا بهـا العدو على الرحيل بعد طول انتظار أجهده دون أن ينـال منهم نيلًا، بل كانـوا هم الذين نالوا منه ما أدمى قلوبهـم بقتـل بعـض صناديدهـم وفرسـانهم الذيـن أقحموا خيولهـم، وأجالوهـا فـي بعض مواضعـه، فنزل إليهـم أبطال الإسـلام: علي والزبيـر وغيرهما فجندلوهـم وقضوا عليهم، فقتـل علي عمرو بن عبـد ود، وقتل الزبير نوفل بن عبدالله بن المغيرة المخزومي.

هـذا درس مـن دروس (أحـد) أفـاد منـه المجاهـدون فـي (الأحـزاب) إذ كان فـي (أحـد) سـببًا مـن أسـباب مـا نـزل بالمجاهديـن من البلاء والمحن، وكان في (الأحزاب) عنصرًا من عناصر النصر الذي أيد الله به رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو درس خرج منه المجاهدون أصفى معدنا وأقوى عزيمة وأرسـخ

إيمانـا وأهدى سـبيلا ؛ لأنهم صدقوا في متابعتهم لرسـول الله ﷺ ، فنصرهم الله نصرًا عزيزًا أدال[٧] لهم به من أعدائهم.

صبر رسول الله ﷺ على الشدائد ومشاركته لأصحابه في حفر الخندق ألهب عزائمهم -:

بدأ رسـول الله ﷺ العمل فـي حفر الخندق بجد ودأب كان يسـابق بهمـا الزمن ليكمله قبـل وصول أعدائه إليه ، فقسـمه بيـن المجاهدين من المهاجرين والأنصار ومن معهم من سـائر المسـلمين ، فجعـل على كل عشـرة منهم جزءا منـه ، وكانوا يتنافسون في العمل ، وشمّر رسول الله ﷺ عن جهده في العمل مـع أصحابه ليتأسـوا به ، وينشـطوا وهم راغبـون في ثواب الله وجزيل إحسانه وعظيم فضله.

روى البخـاري عـن البـراء بـن عـازب قـال : لمـا كان يوم الأحزاب وخندق رسـول الله ﷺ رأيتـه ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنـي التراب جلدة بطنه ، وأخرج البخاري أيضا عن أنـس أن النبي ﷺ خرج إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلمـا رأى مـا بهم من النصـب والجوع قـال ﷺ ليهون عليهم شـأن الدنيا ، ويعظم في نفوسـهم أمر الآخرة ، ويجدد صبرهم ويشحذ عزائمهم ، ويزيد رغبتهم في الجهاد لإعلاء كلمة الله ،

(٧) أدال الشـيء: جعله مداولـة، أي تارة لهؤلاء وتـارة للآخرين (معجم اللغة العربية المعاصرة). المجلة.

ويحبب إليهم العمل في إعداد وسائل القوة والمنعة:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة (صحيح البخاري) فيجيبه أصحابه -رضوان الله عليهم- مستهينين بما يلحقهم من النصب والتعب قائلين:

نحن الذين بايعوا محمدًا

على الجهاد ما بقينا أبدًا

وفي حديث جابر في الصحيح قال: إنا نحفر يوم الخندق فعرضت كدية، فجاءوا إلى النبي ﷺ وقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقام ﷺ وبطنه معصوب بحجر.

وفي حديث الكدية عند أحمد في وصف ما أصاب المجاهدين من شدائد وأزمات وهم يعملون في الخندق: أصابهم جهد شديد حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجرًا من الجوع.

وكان أقصى ما يصل إليهم ليتبلغوا به ما جاء في حديث أنس عند البخاري قال: يؤتون بمِلء كفي من الشعير، فيصنع لهم في إهالة أي ودك يتحلب من دسم اللحم وشحمه سنخة أي متغيرة، فاسدة الطعم توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن.

ثم قال في الحديث: وقد لبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، ولا نطعم شيئًا ولا نقدر عليه.

فإذا جاء الله تعالى بشيء من الفرج بعد أن تبلغ الشدة أقصى مداها، ورزقهم الله رزقًا يتزودون به جعله النبي ﷺ شركة بين جميع المجاهدين من أصحابه يتواسون فيه، ولا يستأثر به

فـرد أو طائفـة منهـم، وهو ﷺ يعلـم أن ما جاءهـم من رزق لا يقـوم بحاجة فـرد أو أفراد، ولكنه ﷺ يعلم مـا لله عليه وعلى أصحابـه من فضـل ظاهر وخفي في تفريـج كربهم، والتنفيس عنهم بما خصه الله به من أسرار الغيب، فيلقي بنفسه الكريمة على أعتاب الربوبية ورحماتها، وهو ﷺ مشتمل بجلابيب ذل العبودية وضراعة الرجاء أن يجعل الله من هذا الفرج القليل بلاغا يسد جوعة أصحابه ويغيث الساغبين الذين طووا بطونهم على الخوى والخلاء، وهم دائبون على أشـق الجهد في العمل، وفي مثل هذا الموقف يزداد حرص النبي ﷺ على مواسـاة أصحابه بنفسه، وقد بلغ به الجهد من شدة الجوع ما بلغ.

ففـي حديث جابر عند البخاري مـن طريق خلاد بن يحيي: حدثنـا عبدالواحـد بن أيمن، عن أبيه أن جابـرًا -رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسـول الله ائـذن لي إلى البيت، فأذن له فقلت لامرأتـي: رأيـت بالنبي ﷺ شـيئًا ما كان في ذلـك صبر، وفي رواية لهذا الحديث، فقلت: إني رأيت برسـول الله ﷺ خمصًا شـديدًا، فعندكِ شـيء؟ قالت: عندي شـعير وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبـي ﷺ والعجين قد انكسـر، والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضـج، فقلـت: طعيم لي، فقم أنت يا رسـول الله ورجل أو رجلان، قال: (كم هو)؟ فذكرت له، قال: (كثير طيب) قال: (قل لهـا: لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي) فقال:

(قوموا) فقام المهاجرون والأنصار، وفي رواية أخرى لهذا الحديث، فصاح النبي ﷺ : (يا أهل الخندق إن جابرًا صنع سورًا أي طعامًا فحي هلا بكم).

فلما دخل جابر على امرأته قال: ويحك!! جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت هل سألك؟ قلت نعم، فقال النبي ﷺ : (ادخلوا ولا تضاغطوا) فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا، وبقيت بقية، فقال: (كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة).

قال جابر وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو:

هذا الموقف الإنسانى النبيل، وهذا الفعل الكريم من النبي ﷺ وأصحابه المجاهدين يضع هذا المجتمع المسلم في مكان حجر الزاوية من بناء كتائب الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته، ويجعل من قيادته العظمى ممثلة في رسول الله ﷺ أفقها المتسامي الذي تتطلبه حياة مجتمع نيط به نشر رسالة الحق والخير والهدى والنور، وإقامة موازين العدل والتراحم بين عامة الناس وخاصتهم على أساس أقصى ما يتحمل الإنسان من الصبر على البأساء والضراء، ويجعله قائما على أرفع منازل التواسي بالخير بين القيادة وجنودها في العسر واليسر،

والمنشط والمكره، والشدة والرخاء...

هذا رشح من غيث النبوة في قيادة النبي ﷺ لمجتمعه المسلم في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وهو ﷺ أكرم خلق الله على الله، وأعزهم عنده، وأحبهم إليه يشارك أصحابه وجند كتائبه في حمل تراب الخندق حتى يواري التراب جلد بطنه، ويجوع معهم، ويبقى على الجوع كما بقوا أياما وليالي لا يذوقون فيها ذواقًا ولا يطعمون شيئًا، ولا يقدرون على شيء يقيم أصلابهم.

ويشتد به ﷺ الجوع حتى تلتصق بطنه بظهره، ويخشى أن يعجزه ذلك عن العمل كما يعمل أصحابه فيشد على بطنه الحجر ليقيم به صلبه، ويرى ما عليه أصحابه من المسغبة وشدة الجوع وقسوة البرد، وهم يعملون في حفر الخندق بأنفسهم في غداة باردة، فيعللهم بالأناشيد الباعثة على حب العمل واحتمال مشقته والدأب عليه كما تعلل الأم الرءوم فلذة كبدها وهي تراه يتلوى من الجوع وقد قلص ثديها وجف عن مذقة ترضعه إياها، وأصحابه ﷺ ينسون ما بهم من آلام فيجاذبونه النشيد ويجيبونه بقولهم:

نحن الذين بايعوا محمدًا
على الجهاد ما بقينا أبدا

ليقروا عينه ويشعروه ﷺ أنهم شروا أنفسهم في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وأنهم بايعوه ﷺ على الجهاد ما بقوا على ظهر الأرض تنبض قلوبهم بالحياة.

وقد اختلفت الروايات في تحديد الزمن الذي استغرقه حفر الخندق، وأصح ذلك وأرجحه ما ذهب إليه محمد بن سعد في الطبقات، وهو أنهم مكثوا في حفر الخندق ستة أيام، قال السمهودي: وهو المعروف.

وذكر موسى بن عقبة في مغازيه أنهم أقاموا في عمل الخندق قريبا من عشرين ليلة، وذكر الواقدي أنهم أقاموا في حفره أربعًا وعشرين ليلة، وهذا فرق كبير واختلاف عريض.

والظاهر أنه قد اشتبه على الرواة واختلط على بعضهم أمر حصار الأحزاب للنبي ﷺ وأصحابه بأمر الحفر، فجعلوا مدة الحصار هي مدة الحفر، والصواب ما ذهب إليه ابن سعد من أن مدة الحفر ستة أيام بلياليها كما أيده السمهودي بقوله: وهو المعروف، والخلاف الذي بين رواية ابن عقبة ورواية الواقدي إنما هو في مدة الحصار لا في مدة الحفر؛ لأن النبي ﷺ بدأ العمل في حفر الخندق والأحزاب كانوا قد أتموا أهبتهم وأعدوا للسير عدته، وكان ركب خزاعة قد سبقهم بالخبر إلى النبي ﷺ، وقطع المسافة بين مكة والمدينة في أربعة أيام.

ومن أبعد البعد أن يستغرق سيرهم ما قيل في مدة الحصار بتوهم أنها مدة الحفر، والخندق كان هو الوسيلة العظمى في مواقفة الأحزاب عند هجومهم، فلابد أن يكون قد أعد وفرغ منه قبل أن يصلوا إلى مكان المعركة.

ولعل الذين زعموا أن مدة الحفر طالت فنقلوا لها مدة

الحصار، أنهم أدخلوا مدة حراسة الخندق وترميم ما عسى أن يكون قد وهى منه في مدة الحفر فقالوا ما قالوا:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق أقبلت جموع الأحزاب تجر ذيول الصلف وفجور الغرور، وكانوا عشرة آلاف، فنزلت قريش وأحابيشها ومن تبعهم من تهامة وبني كنانة بقيادة أبي سفيان بن حرب وهم أربعة آلاف بمجتمع السيول، ونزل الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري بمن معه من قومه غطفان ومن تبعهم من أهل نجد إلى جانب (أحد) بذنب نقمى وكانوا ألفًا، ونزل بقية الأحزاب في منازلهم من حول المدينة، فكانوا ثلاثة عسكر، وعناج أمرهم وصاحب كلمتهم أبو سفيان بن حرب.

وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المجاهدين فنزلوا إلى جنب سلع وجعلوا ظهورهم إليه، وهو جبيل من جبال المدينة، وجعلوا الخندق بينهم وبين أعدائهم والمدينة في مواجهتهم وكانت المدينة مشبكة بالبنيان، فكانت كالحصن.

وكان بروز رسول الله ﷺ في مواقفة أعدائه يوم الاثنين لثماني ليال مضين من ذي القعدة، وكان يحمل لواء المهاجرين زيد بن حارثة ويحمل لواء الأنصار سعد بن عبادة، ورفع المسلمون النساء والأطفال والذراري والعجزة من الرجال إلى الآطام لحمايتهم من غدر قريظة.

وكان النبي ﷺ يرسل الحرس إلى المدينة، قال ابن سعد:

فيرسل سلمة بن أسلم في مئتي رجل، ويرسل زيد بن حارثة في ثلاث مئة رجل، يحرسون المدينة ويظهرون التكبير، ليرهبوا قريظة لئلا يسول لهم الغدر نقض عهد رسول الله ﷺ فيهجموا على المدينة، ويوقعوا بمن فيها من النساء والأطفال والعجزة.

وخرج الخبيث حيي بن أخطب- لعنه الله- إلى بني قريظة ليضيف إلى فجوره في تجميع الأحزاب وتحريضهم على محاربة رسول الله ﷺ فجورًا جديدًا، فسار حتى أتى صاحب عقدهم كعب بن أسد القرظي، وكان كعب قد وادع رسول الله ﷺ وصالحه على قومه، حتى إذا أحس بمجيء حيي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه، وأبى أن يفتح له، وقال له: ويحك يا حيي؟! إنك امرؤ مشئوم، وإني عاهدت محمدًا، فلست بناقض ما بيني وبينه، فإني لم أر منه إلا وفاء وصدقًا.

ولكن الخبيث حيي لم يؤيسه صنيع كعب بن أسد وقوله في شهادته للنبي ﷺ بالصدق والوفاء في موادعته: فإني لم أر منه إلا وفاء وصدقًا، ولكنه لم يزل به يسوسه ويروضه على الغدر ونقض العهد، ويؤنسه ليستنزله عن موقفه، فجعل يفتل له في الذروة والغارب ليفتح له باب الحصن ويسمع منه ما يريد أن يقوله له في محاورته الخبيثة حتى أحفظه ورماه بالبخل، وقال له: والله إن أغلقت دوني باب حصنك إلا تخوفًا

على جشيشتك[٨] أن آكل معك منها ، ففتح له كعب وأدخله حصنه ، فقال حيي - لعنه الله - ويلك يا كعب !! لقد جئتك بعز الدهر ، جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجتمع السيول ومن دونهم غطفان ، لقد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه ، فقال له كعب بن أسد : جئتني والله بذل الدهر ، وبجهام[٩] قد اهراق ماءه ، يرعد ويبرق ليس فيه شيء ، ويحك يا حيي !! دعني وما أنا عليه ، فإني لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاء . ولكن حييًا - لعنه الله - لم يزل بكعب يقاوله ويخادعه حتى أعطاه عهدًا على أنه إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك يصيبني ما أصابك ، فأجابه كعب بن أسد ونقض عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ من الموادعة والصلح والعهد .

وكان رسول الله ﷺ أعلم الناس بطبعة اليهود الغادرة ، لا يطمئن إلى عهودهم ويخشى غدرهم وهو ﷺ مشغول بمواجهة أعدائه المتحزبين عليه ، وكأنه ﷺ أحس بروح الغدر تمشي في الظلام إلى بني قريظة ، فقال لأصحابه من يأتيني بخبر قريظة ؟ فقال الزبير بن العوام : أنا يا رسول الله ، قال الزبير : فانطلقت إليهم وعرفت خبرهم ، ورجعت إليه ﷺ به ، فجمع لي رسول الله ﷺ بين أبويه فقال لي : (فداك أبي وأمي) .

---

(٨) الجشيش: الحَبُّ حين يُدق قبل أن يطبخ، فإذا طبخ فهو جشيشة (المحكم والمحيط الأعظم). (المجلة).

(٩) المراد بالجهام: السحاب الكريه الذي لا خير فيه. (المجلة).

ولما انتهى خبر بني قريظة إلى رسول الله ﷺ وأنهم نقضوا عهده أراد أن يتأكد مما بلغه حتى يأمن على العامة عند بلوغهم ما بلغه وهو ﷺ على يقين مما بلغه، فلا يصل الخبر إلى عامة المجاهدين إلا وهم قد علموا أن رسول الله ﷺ قد أحاط خبرًا واتخذ له من الأحداث أقرانه.

فبعث السعدين: سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة ليتعرفا حال بني قريظة ويؤكدا له خبرهم، حتى إذا أعلنه لأصحابه، وكانوا يعلمون بعهده معهم يكون قد وضعهم أمام أمر واقع لا يشك فيه، ليتخذوا له أهبته فلا يفاجئهم أمره.

وبعث ﷺ مع السعدين عبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير، وأسيد بن الحضير، وقال لهم: (انطلقوا لتنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقًا فالحنوا إلي لحنًا أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا فاجهروا به للناس)، فذهب بعث رسول الله ﷺ إلى بني قريظة، واختبروا حالهم فوجدوهم على أخبث ما بلغه عنهم، وتكلموا في حق رسول الله ﷺ وتبرؤا من عقده وعهده.

ثم أقبل السعدان ومن معهما على رسول الله ﷺ فلحنوا له كما أمرهم، وقالوا: عضل والقارة، أي إنهم غدروا كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب بن عدي وأصحابه، فكبر رسول الله ﷺ وقال: (أبشروا يا معشر المسلمين) أي بما يلقاه أهل الغدر جزاء غدرهم، ليقوي عزائم المسلمين،

وأن النصر حليفهم ولواءه معقود بنواصيهم إن هم صبروا، وذلك لصدق إيمانهم بصدق رسول الله ﷺ فيما يخبر به، قال الواقدي: فقال ﷺ: (الله أكبر، أبشروا بنصر الله وعونه، إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق، وآخذ المفتاح، وليهلكن كسرى وقيصر ولتنفقن أموالهما في سبيل الله).

وفي بعث السعدين ومن معهما لون من الحكمة السياسية، يمثل معلمًا من معالم منهج الرسالة الخالدة التي قصد إليها رسول الله ﷺ في أخذه بني قريظة بغدرهم ونقضهم لعهده ﷺ، ذلك أنه ﷺ حين بعث حواريه الزبير بن العوام إلى بني قريظة لتعرف حالهم- فذهب إليهم الزبير ورجع إلى رسول الله ﷺ يخبره أنهم على أخبث حال يضمرون الغدر وينقضون العهد- لم يشك لحظة في صدق خبر الزبير عنهم، ولكنه ﷺ كان على أكمل العلم بما بين الأنصار وطوائف اليهود من روابط جاهلية لم تنفصم عراها، وكانت هذه الروابط تبرز عند مناسباتها في أوقات الأزمات والمحن، وكان بين الأنصار من الأوس والخزرج تنافس، وكانت فيهم حمية لهذه الروابط، يكرهون أن تمس من غيرهم، وكثيرًا ما كان يقع التقاول والتصاول بين الحيين من جراء هذه الروابط الجاهلية.

فرأى رسول الله ﷺ أن يحتاط ويجعل أمر بني قريظة في أخذهم بغدرهم قائمًا على أخبار حلفائهم ومواليهم من الأنصار الذين أصبحوا سادة المجتمع المدني، حتى إذا أخذوا بغدرهم

كان أخذهم بأيدي من يرتبطون بهم ويدافعون عنهم.

ولذلك اختار القرظيون تحكيم سعد بن معاذ في نهاية أمرهم، بعد أن حاصرهم النبي ﷺ حصارا شديدًا، ولكن سعد بن معاذ كان رجلًا قوي الإيمان راسخ اليقين، غسل الإيمان قلبه من تلك الروابط الجاهلية، فلم تأخذه فيهم لومة لائم، وحكم فيهم بحكم الله تعالى الذي ارتضاه رسوله ﷺ والمؤمنون، وقد كان الأوس قوم سعد بن معاذ يرجون منه أن يحسن إليهم وينقذهم من أسوأ مصير ينتظرهم، فقالوا له: يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

هذه سياسة حكيمة رسمت للمجتمع المسلم جانبًا من جوانب منهج الرسالة الخالدة ليكون دعامة الدعائم الاجتماعية في سياسة المجتمع المسلم في مستقبل حياته.

ونزلت حشود الأحزاب وجموعهم منازلها من ميدان المعركة، محيطين بكتائب المجاهدين، إذ جاءوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، واشتد البلاء، وعظم الخطب، وزاغت الأبصار، وضاقت مجاري الأنفاس وبلغت القلوب الحناجر، وتناوحت الظنون والأوهام، وطفت التخيلات والشكوك، وظن ضعفة الإيمان بالله الظنونا، واستولت وساوس الشيطان على العقول والقلوب والأفكار، ونجم النفاق واستشرى الظلام وكثرت الأراجيف الفاجرة، وانتشرت منها الأكاذيب الماكرة

حتى أخذت المحنة بالحلاقيم، وتعاظم البلاء واشتدت المحن، وزلزل المجاهدون زلزالًا شديدًا أساخ أقدامهم، وأيبس أعصابهم وشل حركاتهم، وكانوا كما ذكرهم الله تعالى بمواقف محن السابقين من المؤمنين في قوله تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢١٤)

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة قال: نزلت هذه الآية في يوم الأحزاب أصاب النبي ﷺ يومئذ وأصحابه بلاء وحصر.

المنافقون يستولي عليهم الرعب والفزع فيكشف قناع قلوبهم عن الجبن والهلع:

ولم يقو المنافقون على مداراة وتغطية ما نزل بهم من الرعب والهلع والجبن والفزع، مما جعلهم يتسللون في خفية وتدسس فرارًا أن يصيبهم من الكوارث ما يقصم ظهورهم، وكان أمثلهم طريقة في النفاق من يستأذن النبي ﷺ متعللين بالأكاذيب الفاجرة، يقولون إن بيوتنا عورة أي مكشوفة للعدو، وقد كذبوا بما قالوا وفجروا فيما زعموا، وقد رد الله عليهم كذبهم وفجورهم، فقال: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ ولكنهم لجبنهم وتزايل مفاصلهم من هول ما رأوا وما عاينوا من الشدائد والأزمات زعموا ما زعموا من الكذب، وهم في مداخل أنفسهم لا يريدون

إلا فرارًا، لينجوا بزعمهم من البلاء والمحن القواصم.

وفي ذلك كله نزل قدر كبير من صدر سورة الأحزاب بدأه الله تعالى بأشرف وأحب نداء للمؤمنين، ممتنًا بنعمه وفضله عليهم، ومذكرًا لهم بإحسانه في تفريج ضوائقهم فيما سبق لهم من المحن التمحيصية لتطهرهم من شوائب الخوف، وتثبت قلوبهم وتربط على أفئدتهم بروابط الإيمان، فقال جل شأنه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٩)

ثم ذكر عز شأنه مواقع جنود الأعداء في إحاطتهم بكتائب المجاهدين، فقال: ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ ﴾ يعني غطفان ومن تبعها من أهل نجد بقيادة الأحمق المطاع عيينه بن حصن الفزاري، ثم قال تعالى: ﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ ﴾ وهم قريش وأحابيشها ومن ضوى إليهم من كنانة وأهل تهامة، بقيادة أبي سفيان صخر بن حرب بعد قتل صناديدها في بدر.

ثم قال تعالى يذكر شدة البلاء وعظيم المحنة، ويصف ما أصاب المجاهدين في موقعهم من ميدان المعركة:

﴿وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾

وزيغ الأبصار تحيرها وعدم تثبتها مما ترى، لأنها مالت عن سننها وأضلت طريقها إلى ما تريد إبصاره، فلم تثبت مما ترى شيئًا لشدة الهول الذي نزل بأصحابها فأفسد رؤيتها.

ومعنى بلوغ القلوب الحناجر التي هي مدخل الطعام والشراب: أنها اضطربت واهتزت روابطها وكثر وجيبها، وكأنما تحولت عن مكانها لتضايقه عن حركات اضطرابها لتخرج إلى ما يسعها وهو كناية عن بلوغ الشدة أقصى غايتها.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾

إخبار عن اختلاف الأحوال أمام النوازل والكوارث التي لا يستطاع دفعها، فأهل التثبت كانت ظنونهم أن هذا الذي نزل بهم إنما هو ابتلاء من الله تعالى ليميز به الخبيث من الطيب، كما قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ (آل عمران: ١٧٩)

حتى يصفي المجتمع المسلم من غلث[١٠] الضعف.

وأما ضعفاء المؤمنين الذين لم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم، فظنهم بالله أنهم حينما رأوا ما نزل من البلاء تحيروا، واهتزت عزائمهم، ووهنت دعائم إيمانهم، وملكهم الخوف والرعب، فجسم لهم خيالهم الصغير كبيرًا، وأراهم ما لم يروا، وأنزلهم الشيطان منازل حيرته ووسوسته وضلالاته.

(١٠) الغلث: الخلط (كتاب العين). (المجلة).

وأما المنافقون على القــول بدخولهم في عموم النداء نظرًا لظاهــر حالهم مــن إظهار الإسـلام ومداخلتهــم لمجتمعه، مع إبطانهــم الكفر وتدسســهم مع أهله، فظنهــم بالله ما حكاه الله عنهم من التكذيب لوعد الله في قوله:

﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾

وقــد أخذوا معهــم في هذا الظن الســيء من الذين اســتعبد الخــوف والرعب والفزع نفوســهم، فكانــوا على بعض أخلاق المنافقيــن فــي طبائعهم المهــزوزة، وقد وســمهم الله بمرض القلوب، وهم الذين مس الإيمان قلوبهم ولكنه لم يستقر فيها استقرارًا ثابتًا يعصمه عن التأثر ببعض خلال المنافقين.

وقــد عقــب الله تعالــى ما ذكره مــن أحــوال المجاهدين في موقفهــم أمام جموع أعدائهم بتصوير إجمالي لابتلائهم وزلزلة أقدامهم في قوله تعالى:

﴿ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾

ومعناه أن الخوف بلغ منهم مبلغًا عظيمًا أزعجهم وأفزعهم، وذهب بأمنهم وثباتهم وذهلــوا عن النظر في معمعة الموقف، ولــم يكن لهم إلا ترقب العواقب التي توحي بها هذه الشــدائد والأزمــات التي لم يعرفوا لهــم مخرجًا منهــا، لتعمية معالمها عليهم لشدة ما لحقهم من الفزع.

ثم قال الله تعالى يحكي شيئًا من تدسس النفاق والمنافقين في جبنهم وعدم تماسكهم أمام شدائد الأحداث

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾

وهـذا تذكير للنبي ﷺ بحال هـؤلاء المنافقين الجبناء، فكأن الله تبارك وتعالى يقول: واذكر يا محمد قول طائفة من المنافقين لغيرها من طوائفهم: (يا أهل يثرب) وهذا النداء يرجع بهم إلى جذور كفرهم، فهم لم يقولوا يا أهل المدينة- وهو الاسم الإسلامي الذي سميت به بعد هجرة النبي ﷺ إليها، واتخذها دارًا له ولمجتمعه المسلم، وجعل منها قلعة لكتائبه وحصنًا للمجاهدين- كراهية في الإسلام وأهله، ولكنهم قالوا: (يا أهل يثرب) فرارًا من اسم المدينة الذي يوحي بالاستقرار والتجمع المطمئن الآمن إلى التثريب واللوم والتقريع وهذا قالوا لإخوانهم المنافقين: (لا مقام لكم) أي مع هذه الشدائد المرعبات المزعجات وتوالي المحن والبلايا، فارجعوا إلى بيوتكم لتأمنوا عواقب هذه المزعجات متعللين بالكذب والبهتان في قولهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ وقد أكذبهم الله في قولهم فقال ردًا عليهم: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ ولكنهم لجبنهم لا يريدون من هذا الكذب إلا الفرار عن مواقع البأس والشدة.

ثــم بين تعالــى أن الجبن طبيعة النفــاق والمنافقين، وأن ما هم عليه من الرعب والانزعاج ليس قاصرًا على وجودهم فــي ميادين المعــارك، ولكنه ملازم لهــم لا يفارقهم، فقال: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم ﴾ أي بيوتهــم ﴿ مِّنْ أَقْطَارِهَا ﴾ من جميع جوانبهــا وأكنافها، وانثالت على أهليهــم وذراريهم جموع الأعــداء ناهبين لأموالهم، ســابين لنســائهم وأطفالهم، ثم ســئلوا عند ذلــك الرجوعِ إلــى صريح الكفر لأســرعوا إلى إجابة ما يطلب منهم فرقًا من هؤلاء المهاجمين لبيوتهم.

قــال الزمخشــري: والمعنى أنهــم يتعللون بإعــوار بيوتهم ويتمحلون ليفروا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين ومصافة الأحزاب الذين ملئوهــم رعبًا وهولًا، وهؤلاء الأحزاب كما هم لو كبســوا عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر، وقيل كونوا على المســلمين لســارعوا إليه، وما تعللوا بشــيء، وما ذلك إلا لمقتهم الإســلام وشــدة بغضهم لأهلــه وحبهم الكفر وتهالكهم على مصانعة أهله، والارتماء في أحضانهم.

خصائص المنافقين مستمدة من خصائص معلميهم اليهود:

ثــم بيــن تعالــى أن المنافقيــن غــدر لا عهد لهــم، بل هم- كمعلميهم من أخابث اليهــود- مجبولون على الخيانة والغدر ونقــض العهود لا يستمســكون بعقــد ولا يوفــون بوعد، كما وصفهــم رســول الله ﷺ وقــد بلاهــم، وعلم مداخــل فجورهم فقــال: (إذا حدثــوا كذبــوا، وإذا وعدوا أخلفــوا، وإذا ائتمنوا

خانوا، وإذا عاهدوا غدروا، وإذا خاصموا فجروا) فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ﴾

وقالوا: لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن، وقد كذبوا وأخلفوا الله ورسوله ما وعدوه.

ثم بين الله تعالى للمنافين أن الفرار لا ينجي من قدر الله، وأن قدر الله تعالى واقع لا مفر منه عند حلول أجله في مناسباته، ولو نجاكم أيها المنافقون الفرار من الحتف أو القتل لكانت هذه النجاة مسطرة في علم الله يجري بها قدره، ولا تعدو أن تكون متعة قليلة جرى بها قلم الغيب، تنقضي فينقضي عمر من عاشها.

ومما ينسب إلى علي رضي الله عنه في هذا المعنى قوله:

أي يوم من الموت أفر
يوم لم يقدر أو يوم قدر
يوم لم يقدر لا أرهبه
ومن المقدور لا ينجو الحذر

ثم زجر الله تعالى المنافقين مقرعًا لهم، فأمر نبيه محمدًا ﷺ أن يبلغهم أن سنة الله تعالى في مجريات أقداره ونفاذ إرادته لا تتخلف، فقال له ﷺ قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: من ذا الذي يعصمكم- أي يمنعكم من الله- إن أراد بكم سوءا من ألوان عذابه وأذاقكم بأسه، أو أراد بكم رحمة، في الدنيا

يستدرجكم بها لتزدادوا رجسًا على رجسكم، فتكونوا أحقاء بإنزال أسوأ العقاب بكم وإحلالكم أشد العذاب؟! والاستفهام إنكاري مصحوب بالتقريع، ومعنى الكلام: لا أحد يمنعكم من نزول ما أراد الله بكم إنزاله من بأسه ومقته، ولا أحد يمنعكم ويحول بينكم وبين ما أراد الله بكم من رحمة تصيبكم في الدنيا لتزدادوا بها آثامًا إلى آثامكم وقد عدمتم الولي والناصر الذي يجيركم من عذاب الله، فلا تجدونه لو طلبتموه بكل ما في استطاعتكم من سيء المكر وخبيث التدبير، ثم أخبرهم الله تعالى أن علمه المحيط لا يند عنه سوء مقصدكم في تثبيطكم عزائم المؤمنين من أقربائكم عن الخروج مع رسول الله ﷺ لمقاتلة أعدائه وأعداء رسالته من طوائف الأحزاب المهاجمين لهم، وتدعون أقرباءكم إلى أن يكونوا معكم لتباعدوهم عن الجهاد لإعلاء كلمة الله مع رسوله ﷺ وإذا افتضح نفاقكم لم تخرجوا لتقاتلوا إلا قتالًا قليلًا لتدفعوا به قالة السوء عنكم.

ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنافقين في مجال البذل والإنفاق في الحرب، ووصمهم بأنهم ضموا إلى الجبن البخل فقال تعالى:

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾

في وقت الحرب أضِنَّاء بما في أيديهم يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله، فإذا جاءهم طلبُ البذل والإنفاقِ ضاقت أنفاسهم، وعراهم ما يعرو الموتى، ونظروا إلى رسول ﷺ بأعين حائرة

زائغة كنظر الذي تغشاه الموت ونزلت به أسبابه وهو يعالج سكراته وشدائده فلا يرى أمامه إلا أشباحًا لا يميزها، فإذا ذهبت الشدة وانتهت المعركة وحيزت الغنائم هب المنافقون في حرص البخلاء الأشحة على المال، وانتقل بهم شحهم من الخور والرعب إلى المطالبة بنصيب من الغنائم في فجور وقح، يطلقون عليكم ألسنتهم بالسوء والبذاء لتوفروا لهم ما يطلبون من الغنائم، ويدَّعون زورًا وكذبًا أنهم قاتلوا معكم وبمكانهم منكم في القتال غلبتم أعداءكم وغنمتم أموالهم.

ثم أكد ما جُبلوا عليه من البخل والشح تأكيدًا محا وجودهم من سجل الرجاء في أن يصدر منهم فعل من أفعال الخير، فقال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ وتعليق (أشحة) بحرف الاستعلاء (على) دون حرف (الباء) التي تفيد الإلصاق بالخير ولزومه لهم؛ لأنه أريد بالكلام تجريدهم من كل رغبة في الخير، ومعناه أنهم بلغوا من البخل على المؤمنين أنهم يكرهون أن يكون الخير ظلة يستظلون بها، ولكنهم لشدة كراهيتهم له يجعلونه تحت أقدامهم يستعلون عليه، نافرين منه نفرة تباعد بينهم وبينه، فلا هم يعرفونه ولا هو من خلائقهم وسجاياهم، فهم أشحة بالخير ولو على أنفسهم، فكانوا بذلك مفارقين بطبيعة وجودهم لأهل الإيمان؛ لأن الإيمان أصل أصول الخير،

لم يسامتهم[11] مسامتة تجعل لهم منه أي نصيب، ولو كان لهم منه ذرة لحبط وهلك وباد كما يبيد الظل إذا واجهته أشعة الشمس، بما يقترفونه من تدسس خبيث ونفاق معرق أصيل فيهم يملأ جوانحهم وعقولهم، ويستولي على مشاعرهم.

ثم ذكر الله تعالى بعض تعللاتهم الباطلة التي يخدعون بها أنفسهم نتيجة للخوف والرعب والجبن من كل ما امتلأت به قلوبهم واستحوذ على إحساساتهم، حتى إنهم يتوهمون الواقع المشهود غير واقع ولا موجود لشدة ذهولهم وزيغ أبصارهم وضلال بصائرهم وفساد عقولهم واضطراب تفكيرهم.

فالهزيمة النكراء التي نزلت بأوليائهم من طواغيت الشرك وعبيد الوثنية المتحزبين على رسول الله ﷺ وعلى مجتمعه المسلم، والتي فرقت جموعهم ومزقت تحزبهم وشتتت شملهم، وأطلقت أسواقهم للفرار مدبرين لا يلوون على شيء - يتوهمونها تحفزًا للكرَّة وتوثبًا للرجعة لمهاجمة المجاهدين، فقال تعالى في تصوير هذا الموقف: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾ مدحورين منهزمين، وهذا حسبان باطل أملاه الهلع الذي أصيبوا به من جراء تبدد آمالهم في أحزاب الكفر وحشود الشرك والطغيان، ولكن الواقع صك عقولهم وأراهم الحقيقة معاينة، وأن الأحزاب قد انهزموا هزيمة

(١١) سامت الشيء: واجهه ووازاه. (المجلة).

كشـفت سـوءات غرورهـم بقواهـم المادية التـي ذهبت هباء مـع أضاليل الشـيطان وأباطيله، والمنافقون يـرون في دخائل أنفسهم جبنهم وخورهم وزيغ أبصارهم وضلال بصائرهم.

فإن رجع الأحـزاب -وما هم بفاعلين لأنهم أصيبوا بما حل عواصم تحزبهم- تمنى المنافقون لهول ما حلَّ بهم من الخوف والرعب أن لا يشـهدوا مرَّة أخرى ما شهدوه من قبل، وودُّوا لو أنهـم أتيح لهم مهرب إلـى بوادي الأعراب، يتسـقطون أخبار المجاهدين، ويسألون عن أنبائهم وتعرف أحوالهم.

ثم فضحهم الله وكشـف سـرهم مبينًا أن هذا السؤال سؤال نفاق خبيث، يودون من ورائه أن يسـمعوا شيئًا يسرهم وقوعه للمجاهدين، وأنهم لو كانوا موجودين بين صفوف المسلمين لـم يتخلوا عـن جبنهم، ولـو اضطـروا أن يباشـروا القتال مع المجاهديـن لم يقاتلوا إلا قتـالًا ضعيفًا يدارون به نفاقهم، فهو قتال تعلة ورياء ونفاق يراءون به المسلمين، وهم يبطنون وراء هذا القتـال الضعيف أفجرَ الكفر والخداع، مما لا يخدع أحدًا من المسـلمين لأن صدق الإيمان وإخلاصه لا يكون بالمظاهر الكاذبـة الخادعة والحـركات المنافقة، وإنما يكون بالتأسـي برسـول الله ﷺ في صدق جهـاده وقوة صبره على لأواء الحياة وشـظفها وشـدة أزماتها، وتحمل أشـد البلاء في سـبيل نشر رسـالته لإعلاء كلمة الله ومجاهدة شـراذم الكفر وفئات النفاق والغلظـة عليهم؛ ليعلمـوا أن ليس في قلـوب المؤمنين هوادة

لهم ولا مداراة لمخازيهم، ولن يتحقق هذا التأسي برسول الله ﷺ إلا لمن صفا قلبه، واستنار بنور الهداية فؤاده، واستوى في الإخلاص للإسلام باطنه وظاهره، وهذا الاستواء في الإخلاص لا يكون إلا بمعرفة حق رسول الله ﷺ على كل مؤمن برسالته والإيمان بأنه ﷺ المحفوظ بتوفيق الله وتسديده بوحيه، فلا يخدع بنفاق المنافقين.

وهذا معنى تأكيد التأسي برجاء اليوم الآخر، والإيمان بمجيئه لتوفية كل عامل جزاء عمله، وأمارة ذلك أن يذكر العبد الله ذكرًا قلبيًا، يغسل درن النفاق، وذكرًا لسانيًا يتطابق مع الذكر القلبي ليكون ذلك عنوانًا على إخلاص الإيمان وصدق اليقين.

الله تعالى يثني على المؤمنين وهم على أهبة القتال:

ثم أثنى الله تعالى على المؤمنين وهم على أهبة خوض المعركة والدخول في معمعاتها ثناء جميلًا، وذلك بإعلان ما وعدهم الله ورسوله، وصدق الله ورسوله في وعدهما لهم بالنصر على حشود الأحزاب وكثرة عددهم وتوافر عُددهم المادية وتكالبهم على استئصال المجتمع المسلم، فقال تعالى:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ﴾

على ما وصفهم رسول الله ﷺ لأصحابه في كثرتهم الهائلة، وضخامة حشودهم، ووفرة عدتهم للهجوم على كتائب المجاهدين، وتعطشهم لسفك دمائهم، قال المؤمنون في صدق وإخلاص وطمأنينة وتسليم:

﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾

أي هذا الذي نراه مشاهدة بأعين أبصارنا من حشود الأحزاب وكثرتهم هو الذي وعدنا الله ورسوله

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾

في تبشير المؤمنين المجاهدين بالنصر على هذه الجموع الخاوية قلوبها من الإيمان كما نصرنا ربنا تبارك وتعالى في (بدر) على حشود الفجور من المشركين، ولم تزدهم رؤيتهم لحشود الأحزاب، وكثرة عددهم ووفرة عدتهم إلا إيمانًا بالله ورسوله، وتسليمًا لأمرهما، وتصديقًا لوعدهما، وتبشيرًا بنصر الله.

ثم ذكر الله تعالى ذكرًا خاصًا شأن صفوة من المؤمنين الذين كانوا في ثباتهم قد بلغوا مبلغًا عاينوا فيه صدق موعود الله، وكانوا عاهدوا الله تعالى على الصبر والثبات، فقال جل شأنه:

﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ﴾

من الثبات في قتال الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، فأوفوا بما عاهدوا، فمنهم من استشهد ومضى إلى ما أعده الله للشهداء من جزيل النعيم، ومنهم من بذل طاقته وجهده، فلم يبقَ منهما شيء ولكن الله تعالى أبقاهم إلى آجالهم ليكونوا غصصًا في حلاقيم فجار الكفر وعبيد الوثنية، وهم على ثباتهم وقوة إيمانهم وصدق إخلاصهم، لم يبدلوا عهودهم مع

الله، ولكنهم ظلوا في قوة إيمانهم وصوارم عزائمهم وصادق إخلاصهم.

ثم ذكر تعالى ما هو السبب في اتصاف الفريقين: خُلَّص المؤمنين، وشراذم المنافقين بما اتصف به كل منهما فقال:

﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾

قال الزمخشري في تفسيرها: وفيه تعريض بمن بدلوا من أهل النفاق ومرضى القلوب، جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بتبديلهم، كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم -بما عاهدوا الله عليه- لأن كلا الفريقين مسوق إلى عاقبته من الثواب والعقاب، فكأنهما استويا في طلبهما والسعي لتحصيلهما.

ختم الآيات بذكر هزيمة الأحزاب وما كان من عاقبة غدر اليهود:

ثم أجملت الآيات في خواتيمها ما كان من هزيمة الأحزاب، وصرف القتال عن المؤمنين بما وقع من معجزة إرسال الريح العاصفة على حشودهم في منازلهم لا تتعداها، وما أرسل معها من جندِ غيبِ الله تعالى تأييدًا لرسوله ﷺ، فصنعت بهم ما أفزعهم بالرعب وملأ قلوبهم بالخوف، وأطلقوا سيقانهم وركائبهم فرارًا من هول ما نزل بهم فقال تعالى:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗا﴾

أي لـم يصيبوا مـن المعركة إلا أنهـم رُدُّوا علـى أعقابهم، والغيـظ يُهرِئ قلوبهـم ويحـرق أكبادهم، تسـوقهم الهزيمة بسياطها

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ﴾

أي صـرف الله عـن المؤمنين بما أمدهم به من معجزة الريح القاصفـة ومـن جند الغيب القتـال وأعفاهم من شـدائده، ولم يحملهـم آصاره وأعبـاءه رحمة بهم، ثم جـاءت فاصلة الآيات بأجلِّ ما يناسبها من نعوت جلاله وقهره فقال:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾

ثـم ذكر الله تعالى شـيئًا مـن غدر يهود بنـي قريظة ووخيم عواقبـه عليهم في مظاهرتهم لأهل الشـرك من الأحزاب الذين قامـوا بتحزيبهـم وتحريضهم على قتال رسـول الله ﷺ وقتال أصحابه حتى يستأصلوهم، فقال:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ﴾(الأحزاب: ٢٦)

وكان حيـي بن أخطب -لعنه الله- بعـد أن فرغ من تحزيب الأحـزاب ذهب إلى إخـوة القـردة والخنازير، وهـم معاهِدون للنبي ﷺ فلم يزل حيي برئيسـهم كعب بن أسـد يروضه على نقض العهد فنقضه وانضم إلى جموع الأحزاب.

والصياصـي هي الحصـون التي يتحصن بهـا الخائفون من

هجمـات أعدائهـم، وزاد الله تعالـى هـؤلاء الغدرة بـلاءً فوق إنزالهم صاغرين أذلاء من حصونهم فألقى في قلوبهم الرعب، فلـم تنفعهـم صياصيهم وحصونهـم، واستسـلموا راغمين، وكانت أموالهم وأرضهم طعمة لرسـول الله ﷺ لم يجرِ عليها تخميـس ولهـذا لما قال عمـر رضي الله عنه: مـا تخمّس كما خمسـت يـوم بدر؟ قال رسـول الله ﷺ «لا، إنمـا جعلت هذه طعمة دون الناس» فقال عمر: رضينا بما صنع الله ورسوله.

وقد راش رسـول الله ﷺ من هذه الأمـوال التي جعلها الله له خالصة للمهاجرين خاصة ليسـتقلوا بأنفسـهم ومعاشـهم عن إخوانهم الأنصار الذين شاركوهم أموالهم وديارهم، بل آثروهم على أنفسهم.

وأريد بقوله تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ (الأحزاب: ٢٧)

تبشير المؤمنين بأن الله تعالى سيتحفهم بنفحات عطاياه ويفتح عليهم بـلادًا وممالك لم تطأ أرضَهـا أقدامُهم، رُوي عن عكرمة أن المراد بها كل أرض تفتح على المسلمين إلى يـوم القيامة، ثـم ختم الله تعالى الآية بمـا يبعث في النفوس طمأنينة الإيمان بأن وعد الله حق وأنه آت لا ريب فيه، فقال:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢٧)

ويدخـل في ذلك فتـح ما يفتح من البـلاد والممالك إعزازًا لدينـه وتعظيمًـا لنبيـه ﷺ ونشـرًا لدعوتـه وتيسـيرًا لتبليغ

رسـالته، وتحقيقًا لبشـرى أمته بظهور دينهـا على الدين كله، كما قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف: ٩)

وإنما أطلنا رشـاء[١٢] البحث في تفسـير هذه الآيات لأنها جمعـت امتنان الله على عباده المؤمنيـن بنعمة الصبر والنصر فـي قصـة الأحزاب، إلى تعقيـب ذلك بذكر أعـداء الله وأعداء دينه، وأعداء نبيه ﷺ وأعداء مجتمعه الذين تحزبوا وتجمعوا من فجاج الأرض لمهاجمة المجاهدين في ديارهم ليعوقوا سير رسالة الإسلام.

وهؤلاء الطوائـف الذين كانوا في سـابق التاريخ يقفون من الإسـلام مواقـف العداء قد تركـوا ميراثهم في ذلـك لربائبهم وتلاميذهـم مـن الملاحـدة والزنادقـة والصليبيـة المتعصبـة والشـيوعية الفاجـرة، واليهـود الغادريـن، والمنافقين الذين يظهرون في إطار العلم الاستشراقي، ومن أخذ عنهم من شباب الإسلام الجغرافي.

وكل أولئـك داخل فيمن ذكرته الآيات التي جاءت في صدر سـورة الأحزاب لمناسـبة الحديث عن غزوتهـا التي كانت في

(١٢) الرشاء: الحبل (لسان العرب). (المجلة).

الماضي آخر غزوات الهجوم الكفور على المجتمع المسلم، وقد شمر وارثو ضلالاتهم في أقطار الأرض ليقفوا من الإسلام اليوم مواقف غابريهم من أهل الكفر والضلال في شتى صوره وأشكاله، والكفر كله ملة واحدة، وشره النفاق.

وقد فسرنا هذه الآيات تفسيرًا قبسناه من سياق القرآن في موضوع الآيات الخاصة بالأحزاب ومن ذكر معهم، ولم نحاول التكثير والتطويل بذكر روايات أصحاب السير والمغازي والمحدثين؛ لأننا قصدنا أن نبرز ما في الآيات من معالم منهج الرسالة الخالدة، والمتأمِّل في هذه الآيات على ضوء تفسيرنا لها يرى أنها أتت على أحداث غزوة الأحزاب التي كانت ثانية الغزوات الإسلامية في شدة الأزمات ونزول البلاء وزلزلة الأقدام بعد غزوة (أحد).

تنبيه إلى ما في هذه الغزوة من معالم منهج الرسالة

نتائج الأحداث من الدروس التربوية في غزوة الأحزاب -الخندق- :

وقد تجلت في غزوة الأحزاب قوة الإيمان وثبات العزائم في مواقف أصحاب رسول الله ﷺ ، وتحملهم قسوة الحوادث ، وصبرهم على شدة الجوع والبرد ، ودأبهم على العمل الشاق ، وتيقظهم لحركات أعدائهم ومواجهة هذه الحركات بما يوائمها من ثبات الإيمان وإخلاص اليقين ، متخذين من مواقف رسول الله ﷺ أسوة يتأسون بها ، حتى كان لهم من كل ذلك دروس عملية في تربية المجتمع المسلم ليتخذها نبراسًا في كل جيل من أجياله المتعاقبة ، ولتعلم هذه الأجيال القادمة أن طلائع الإسلام أقامت شوامخ صروح هذا الدين على دعائم المحن والكفاح المناضل وصرامة العزائم ووزن الدنيا في واقعها بميزانها الحقيقي ، فلا يركنون إليها ولا إلى أهلها ، لأنها سريعة التقضي والزوال ، ووزن الآخرة بميزانها الإلهي في خلودها وثوابها وعقابها ، وما أعد فيها للصابرين على البلايا في سبيل إعلاء كلمة الله ، ليجعلوا من هذا الصبر قوة تقف في وجه الباطل والشر والفساد ، فتهون عليهم أنفسهم في سبيل إقامة معالم الحق ، ونشر رسالته في آفاق الأرض ، إنقاذًا

للبشـرية من أوضار[١٣] الشرك ورجس الوثنية، وضلال العقول والأفـكار التي تنبـت على أرض الإلحـاد والتزندق والانحراف بالفطرة الأصيلة عن سننها من الصفاء والنقاء، حتى ترتد بهذا الانحراف على أعقابهـا لتعيش على مواريث الجاهلية وتراثها المرذول المترسـب في حنايا تفكيرها التقليدي الذي لا يقيم وزنًـا للحـق والعدل، ولكنـه عاش ويعيـش محكومًـا بالتعبد للمـادة المظلمة الظالمـة التي لا يعنيها مـن الحياة إلا تحقيق رغائب الشـهوات مدفوعة إليهـا ببطون كظيظـة[١٤]، وأبدان مترهلة، وأفكار مهلهلة وعقول مستعبدة.

آيـات هـذه الغـزوة في سـورتـها جمعت لبـاب مطالب الحياة من جانبيها في الخير والشر:

وقـد أجملت الآيـات القرآنية التي فسـرناها خلاصة لباب الحياة من جميع جوانبها سلبًا وإيجابًا في قوله تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(الأحزاب: ٢١)

فذكـرت أهل الإيمـان الذين يرون في حياة رسـول الله ﷺ غـذاء روحيًا وماديًا، يجريان بقـدر متفاوت في تكييف الحياة فيأخـذون من هذا ويقبسـون من ذاك ما يقيـم بنيان مجتمعهم

(١٣) الوضر: الدرن. وأوضار الشرك أقذاره. (المجلة).

(١٤) كظيظة: ملأى (تهذيب اللغة). (المجلة).

على أســس متوازنة بين حاجة الروح وحاجة الجسد.. وذكرت الذين لا يرجون الله واليوم الآخر من فجرة الكفار والمشــركين وخبثــاء أهل الكتاب الذيــن نبذوا ما أنزل الله من الحق والهدى وراء أظهرهــم واتبعــوا الباطــل ونصروه، وقالــوا للذين كفروا هــؤلاء فــي شــركهم ووثنيتهم أهــدى ســبيلًا من الذيــن آمنوا بــالله ونصــروا دينه، وحملــوا لواء رســالته، ليضحكــوا منهم ويحملوهم على أن يقفــوا معهم في حروبهم الظالمة المظلمة لمهاجمة المجتمع المســلم، ليصدوا مســيرة الرسالة حتى لا تصــل إلى القلوب والعقــول، وهي تحمل لــواء الهداية والحق والإخاء المتواسي لتعيش الحياة كلها في أمن وسلام وتراحم.

ذكــرت الآيات الكريمة هذا كله صراحــة وتضمينًا ليكون المجتمــع المســلم علــى ذكر منه حتــى لا يخدع عــن منهجه لتســتقيم لــه الحياة، وليعلــم أن حياة الدعاة إلــى الله لا تعرف الترف والتنعم، وإنما هي حياة كفاح ونضال وصبر على شدائد المحــن وكــوارث البــلاء، فلا تهزهــم أعاصير الأحــداث، ولا تخيفهم قوى الأرض وما في أيديها من أسلحة الدمار والفناء.

لأن المؤمــن في هذه الحيــاة متحفز للقاء الله تعالى، وليعلم ولاة أمور المسلمين أنهم أحق الناس بالتأسي برسول الله ﷺ، وقد حذر الله تعالى الحائدين عن التأسي به ﷺ في قوله تعالى:

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣)

جاءت الأحزاب بحشـودها تجرر أذيال الغرور والعنجهية، فوجـدت رسـول الله ﷺ قـد فـرغ هـو وأصحابه تحـت وطأة الشـدة والبلاء من حفر الخندق، وكان حفره من أعظم وسائل (التطـور) فـي الدفـاع الحربي في قتـال غير متكافـئ القوى الماديـة بين الفريقين فلما نظر إليه فرسـان الأحزاب دهشـوا وذهلوا، وقالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثـم تيممـوا مكانًا ضيقًا مـن الخندق، وأكرهـوا خيولهم على اقتحامه فاقتحمت بهم فأجالوها فيه، فخرج إليهم عليّ بن أبي طالب في نفر من أبطال المسـلمين حتـى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيولهم، وأقبلت الفرسان تُعنِق[١٥] نحوهم.

الاستهانة بصغائر الأمور يفتح أبواب عظائمها من العواقب الوخيمة:

وهنـا ننبه علـى العواقب الوخيمـة التي تخلفهـا الغفلة أو الاسـتهانة بصغائر الأمور فيما يجب فيـه الاحتياط، وليس في مواقـف الحياة موقف يتأكد فيه الاحتياط مثل مواقف الحروب ومواقفة الأعداء.

وهـذه الثغـرة -كما يقول ابن سـعد فـي طبقاتـه- أغفلها المسـلمون، فلـم يُحكِموا أمرهـا كما أحكموا سـائر مواضع الخنـدق، فكانـت مقحمًـا لخيـول الأعـداء، ولـو أحكموها وتيقظـوا لها مـا كان هناك منفـذ للاقتحام، وهـذا الإهمال أو

(١٥) تعنق تمشي بسرعة (جمهرة اللغة). (المجلة).

الغفلـة مما يأبـاه منهج الرسـالة، هـذا المنهج الـذي يوجب على كل مسـلم أن يكون حذرًا متيقظًا في عمله غير مسـتهين بصغائـر الأمـور ولا نئوم عـن كبارها[١٦]، فإن معظـم النار من مستصغر الشرر.

وهنا تنادَى عمرو بن عبد ود العامري -وكان من أفجر جموع الأحزاب وفرسـانهم الذين اقتحموا الخندق، وهو أحد شجعان العرب المشـهورين الذين ضرسـتهم الحروب بتجاربها-: من يبارز؟ فقام بطل الإسـلام وفـارس ميادينه عليّ بـن أبي طالب، فقال: أنا يا رسـول الله، فقال لـه النبي ﷺ: «اجلس إنه عمرو» فقـال عمرو: ألا رجل يبرز؟ وجعل يؤنب المسـلمين، ويقول: أيـن جنتكم التي زعمتهم أن من قُتل منكم دخلها؟ أفلا تُبرِزون إلـيَّ رجـلًا، فقام علي رضي الله عنه، فقال: أنا له يا رسـول الله، فقال له النبي ﷺ: «اجلس» ثم نادى عمرو الثالثة بشِعْرٍ يعيِّر به المسلمين، ويرميهم بالجبن، فقام عليّ فقال: أنا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «إنه عمرو» فقال عليّ: وإن كان عمرًا! فأذن له النبي ﷺ ودعا له وعمَّمه، وأعطاه سيفه، فمشى إليه عليّ وهو مقنع بالحديد، فقال عمرو: مَنْ أنت؟ قال علي: أنا عليّ، فقال لـه عمرو: ابن عبد منـاف؟ قال: أنا علي بن أبـي طالب، فقال عمرو: يا ابن أخي مِنْ أعمامك من هو أسن منك، فإني أكره أن أهريق دمك، فقال له علي: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك.

(١٦) النئوم: كثير النوم. والمراد هنا الغفلة. (المجلة).

وفــي عيون الأثر لليعمري عن ابن إســحاق أن عليًا رضي الله عنــه قال لعمرو : إنك كنت عاهــدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه ، فقال له عمرو : أجــلْ ، فقال له عليّ : فإني أدعوك إلى الله ورســوله ﷺ وإلى الإســلام ، فقال عمرو : لا حاجة لي بذلك ، فقال علي : فإني أدعــوك إلى النزال ، فقال له عمرو : يا بن أخي فوالله ما أحب أن أقتلــك ، قــال علي رضــي الله عنــه : لكنــي والله أحب أن أقتلــك ، فحمي عمــرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرســه فعقره وضــرب وجهه ، ثــم أقبل على علــيّ فتنازلا وتجــاولا فقتله علــي ، وخرجت خيلهم منهزمة حتــى اقتحمت من الخندق هاربة .

وفــي رواية أن عليًا لمــا دعا عَمْرًا إلى الإســلام دعاه إليه أو الرجــوع عن الحــرب ، فأبى عمرو إلا البــراز وضحك وقال : ما كنت أظن أحدًا يرومني هذه الخصلة ، ولما أغضبه عليّ بقوله : والله إني لا أكره أن أهريق دمك نزل عن فرسه وسل سيفه كأنه شــعلة نار ، ثــم أقبل على عليّ رضــي الله عنه مغضبًا فاســتقبله علــيّ بدرقتــه(١٧) ، وثارت بينهما عجاجــة(١٨) وغبرة ، وضرب عمرو عليًا فاتقى علــي ضربته بدرقته فانقَدّت(١٩) وأثبت فيها

(١٧) الدرقة: ضرب من التراس (جمهرة اللغة). (المجلة).

(١٨) العجاج: غبار تثور به الريح. (تهذيب اللغة). (المجلة).

(١٩) انقَدّت: انشقت. (المجلة).

السيف، وضربه عليٍ رضي الله عنه فوق عاتقه فقتله، ثم أقبل علـى النبي ﷺ متهللا، فقال له عمر بن الخطاب: هلا سـلبته درعـه فليس فـي العرب درع خيرًا منها؟ فقـال عليّ: إني حين ضربته استقبلني بسوأته فاستحييت.

وقصـة مبارزة عليّ رضي الله عنه عمـرَو بن عبد ود العامري قصة من روائع البطولة الإسلامية؛ لأنها تمثل الشجاعة البطولية في نموذجيها.

موازنة بين شجاعة متثبتة بعواصم الإيمان وأخرى متهورة فاجرة:

النمـوذج الأول - الشـجاعة البطوليـة المتثبتـة بثوابـت الإيمان، المسـتعصمة بعواصمه وهي شجاعة تعتمد على روح الفدائيـة المحفوفة بالرجاء فـي فضل الله، وإمداده بقوة روحية إيمانيـة تتضـاءل أمامها أضخـم القوى الماديـة الجاهلية التي تتجلى مظاهرها في صراع عضلي وسلاح مشحوذ.

النموذج الثاني - شـجاعة بطولية متهورة حمقاء، لا تستند إلـى مـدد داخلي سـوى الغـرور المسـعور والشـهرة الطنانة، والسـوابق المتوازيـة مـع أقرانهـا في اندفـاع أهـوج، لا يقدر العواقب قدرها وصراع أحمق معتوه، يتفزز في توثب طائش.

والنموذج الأول كان يمثله في هذه القصة موقف علي رضي الله عنـه، فإنه لم يكد يسـمع نداء عمـرو: هل من مبارز؟ حتى نهض يعرض نفسه على رسول الله ﷺ أن يكون هو المبارز لهذا

البطل المغرور بقوته وسوابقه في ميادين المعارك الجاهلية التي لا ترتكز إلا على عضل مفتول وساعد مجدول.

وكان يمثل هذا النموذج عمرو بن عبد ود العامري بصلفه وحمقه وجاهليته، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه متحفزًا لمنازلة هذا الطاغية الذي تحدَّى كتائب المسلمين أن يُخرِجوا إليه رجلًا منهم لمبارزته، فكان عليّ كلما سمع صرخته يطلب المبارزة ينهض ليأذن له رسول الله ﷺ في مبارزته، ويقول: أنا له يا رسول الله فيستجلسه رسول الله ﷺ.

حكمة تأني رسول الله ﷺ بالإذن لعليّ في مبارزة عمرو بن عبد ود:

ولعل الحكمة في ذلك كانت هي التفاوت الكبير بينهما في السن وطرائق الحياة وتجارب الحروب، فقد كان عليّ رضي الله عنه إذ ذاك في ميعة الشبوبية الصاعدة التي استحوذ عليها الإسلام بعقيدته وشرائعه وآدابه، فشغلها به منذ إنشائها بين أحضانه في تربية إنسانية جادة صارمة لا تعرف الفراغ العابث ولا العبث الفارغ الذي تستغرقه الفتوة المتصعلكة في أسواق الجاهلية ومحافلها وحروبها للسلب والنهب وسفك الدماء والتباهي بالقوة العضلية ومصارعة الفتيان، استجابة لموروث التراث الجاهلي الذي لا يشغله في حياة الناس شيء، ولا يشغل من حياة الناس شيئًا.

ولكن حياة عليّ رضي الله عنه الإسلامية الخالصة المخلصة

لم تكن تسمح له في تقاربها من الرجولية المكتملة بجولات المصارعات الجاهلية التي اتخذها الفارغون من أضراب عمرو بن عبد ود العامري ديدنهم لترضي صلفهم وغرورهم وبطرهم واستكبارهم في الأرض.

وظل بطل الإسلام علي رضي الله عنه مستوفزًا متحفزًا وهو يسمع صرخات عمرو الداعية إلى المبارزة وقد خلطها بتأنيب المسلمين وتعييرهم بالجبن، وعندئذ وقف علي وهو يقول: أنا له يا رسول الله، فيقول رسول الله ﷺ: «اجلس، إنه عمرو».

ولم يقصد رسول الله ﷺ -فيما يظهر لنا- إخافة علي وإرعابه، وهو ﷺ أعرف الناس به وبشجاعته وبطولته، وقوة بأسه؛ لأنه ربيبه وراضع ثدي نبوته وبطل أبطال دعوته وحامي حمى رسالته، ومجندِل صناديد المشركين في (بدر)، وإنما قصد ﷺ إثارة حمية البطولة ونخوتها في نفس علي رضي الله عنه؛ لينازل قرنه وهو يرى آمال رسول الله ﷺ متعلقة به فيستحضر أقصى غايات بأسه وشجاعته.

ومن ثم أجاب رسول الله ﷺ بكل ما في نفسه من ثقة وقوة بأس، ليزيد من طمأنة رسول الله ﷺ في تحقيق آماله من هذه المبارزة الفريدة فقال: وإن يكن عمرًا.

ويأذن له النبي ﷺ، ويدعو له ويعممه ويعطيه سيفه، ويمشي بطل الإسلام علي رضي الله عنه إلى قرنه بطل الجاهلية مقنعًا بالحديد، فيحاوره محاورة يُحفِظه بها ويستثير غيظه

وغضبه استثارة يغلي منها دماغه، وينزل عن فرسه محنقًا ويسل سيفه من غمده كأنه شعلة نار، ويتجاولان، ويضرب عمرو عليًا ضربة يتقيها علي بدرقته، فيقدها سيف عمرو ويثبت فيها، ويضربه علي على عاتقه فيصرعه، ويعلن التكبير، ثم يقبل على رسول الله ﷺ متهللًا، ويشرق وجه رسول الله ﷺ، ويحمد الله تعالى بما يليق بجلاله.

وفي هذه القصة من معالم منهج الرسالة الخالدة ما يجب أن يتعلمه شباب الإسلام، في معاهده ومدارسه ليستخلصوا من وقائعها وأحداثها ما فيها من آيات بطولية باهرة، لا تتقيد بما عرف في الزمن الغابر، ولكنها تتكيف على حسب زمانها وأطوار الحياة.

ثم برز من فرسان الأحزاب نوفل بن عبدالله بن المغيرة المخزومي، فاقتحم إلى الخندق فضربه الزبير بسيفه ضربة شقه بها نصفين، وقطع سرجه حتى خلص السيف إلى كاهل الفرس، فقيل للزبير: ما رأينا مثل سيفك، فقال الزبير: ما هو السيف ولكنه الساعد.

وعند ابن جرير الطبري أن نوفلًا لما تورط في الخندق رماه الناس بالحجارة فجعل يقول: قِتْلةً أحسنَ من هذه يا معشر العرب، فنزل إليه علي فقتله.

وحكى الزرقاني عن ابن عائذ أن نوفل بن عبدالله وقع في الخندق فاندقت عنقه، وقتله الله، فعظم ذلك على المشركين، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: إنا نعطيكم ديته على أن تتركوه

لندفنـه، وعن الزهيـري أعطوا في جسـده عشـرة آلاف درهم علـى أن يدفع إليهـم فيدفنوه، فـرد عليهم النبـي ﷺ بقوله: «إنـه خبيث خبيث الدية، فلعنه الله ولعن ديته، ولا نمنعكم أن تدفنوه، ولا أرب لنا في ديته».

وفـي هـذه الغزوة رمى حبان بن العرقة -وهي أمه- سـعدَ بن معاذ بسـهم أصابـه في أكحله، فكانت في هذه الرمية شـهادته بعد قضائه في بني قريظة؛ لأن سعدًا دعا الله تعالى بعد أن أصابه حبان بسهمه فقال: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقنـي لهـا، فإنه لا قـوم أحب إلـي أن أجاهدهم من قـوم آذوا رسـولك وكذبـوه وأخرجـوه، وإن كنت وضعت الحـرب بيننا فاجعلها لي شهادة، ولا تمتْني حتى تُقِرَّ عيني من بني قريظة.

وقد اسـتجاب الله تعالى لعبده الصالح سـعد بن معاذ سـيد الأوس، فلـم تقم لقريـش حرب بعدها، وما مـات حتى أقر الله عينـه في بنـي قريظة، ووضع فـي يده الحكـم عليهم، فقضى فيهم بقضاء الله تعالى.

أقـام النبـي ﷺ وأصحابـه مرابطيـن علـى الخندق والمشـركون فـي حشـودهم المتحزبة يحاصرونهم حصارًا شـديدًا، ولـم يكن بين الفريقين قتال إلا المراماة بالنبل، لكن الأعداء كانوا لا يدعون الطلائع يرسلونها بالليل طمعًا في مفاجأة المسلمين وأخذهم على غرة.

بيد أن رسـول الله ﷺ رأى ازدياد الحصـار على أصحابه إلى جانـب مـا هم فيه من شـدة البـلاء وتعاظم المحنـة، فأراد ﷺ

أن يصنع شيئًا يكسر به شوكة الأعداء في تكالبهم ليفرق جموعهم، ويشتت تحزبهم، فبعث إلى الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المري -وكانا زعيمي أكبر كتائب الأحزاب بعد قريش وأحابيشها- ليطمعهما في غنيمة سهلة يأخذانها ويرجعان بمن معهما من قومهما ومن تبعهما من غيرهم عن الحرب، فراوضهما ﷺ مراوضة مطمعة على أن يعطيهما ثلث ثمار المدينة، فانتفخت أوداجهما، وربا سحرهما فرحًا بهذا العرض الذي أطفأ حرارة عزيمتيهما على الحرب، وأصابهما بالتخاذل عن تحزبهما للحرب وخوض نيرانها، وأظهر الرضا والفرح بذلك، وكتب بذلك الكتاب ولم يشهد عليه ولم يوقع عليه، وبعث ﷺ إلى السعدين: سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج، فذكر لهما ذلك يستشيرهما فيه، فقالا: يا رسول الله أهذا أمر تحبه فنصنعه لك، أم هو شيء أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به؟ أم هو شيء تصنعه لنا؟ فقال ﷺ: «بل هو شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما».

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرًى أو بيعًا، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟

ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ: «أنت وذاك» فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال: ليجهدوا علينا.

هذه قصة تمثل واقعة من وقائع أحداث غزوة الخندق، وهي نموذج من نماذج السياسة الحكيمة المحكمة التي أدار رسول الله ﷺ بها الموقف، وقد بلغ ذروة المحنة، وقد أراد ﷺ بهذه السياسة أن يبرز جانبًا من جوانب منهج رسالته في التحرك لفك الأزمات عند استحكامها وتأزماتها لتكون لأجيال المجتمع المسلم درسًا تربويًا من دروس التربية المنهجية عند اشتداد البلاء.

لم يكن يخفى على رسول الله ﷺ أن هؤلاء الأحزاب الذين جمعتهم المطامع المادية، والحرص المسعور، والحقد الأسود الذي أحرق أكباد من جمعوهم من أشرار اليهود وأخبث خبثائهم، والذي ملأ قلوب بقايا الغثاء من فلال قريش غيظًا محنقًا على رسول الله ﷺ وعلى مجتمعه المسلم في تركيبه الجديد بعد الهجرة والمؤاخاة الإيمانية والتكافلية بين المهاجرين والأنصار، مما جعل هذا المجتمع قوة يخشى بأسها - أن هذه الجموع التي لم يكن لها هدف موحد في تجمعها وتحزبها، ولم يكن بينها وصائل تربطها في مواقفتها لكتائب المجتمع المسلم في حرب ضارية شرسة إذا أعطت أخذت، وإذا أخذت فلا عوض لما تأخذ - سبيلها في كسر شوكتها وتفريق تجمعها هو سبيلها في تحزبها، وهي قد تحزبت لتغنم وتنهب وتسلب، فإذا جاءت الغنيمة ربحًا

بغير تجارة، وكسبًا بغير عمل، وأخذًا بغير بذل، كان ذلك هو مطلبها الأقصى في مقاصد زعماء من تحزبوا ومجيئهم ليشترك أقوامهم في حرب ضروس تطحن قلوب المجازفين بأنفسهم تحت رحاها ليغنم غيرهم ويبوءوا هم بالخسران المبين.

فإذا جاءت الغنيمة سهلة لبعض هؤلاء المتحزبين وأهمل الآخرون، فلم يحصلوا على شيء، بل لم يعرض شيء إظهارًا للاستهانة بهم وتحقيرهم وإذلالهم وإضعاف قوتهم مشى الحقد والحسد والشكوك إلى قلوب المحرومين المنبوذين الذين أهملوا فلم يعدوا في العير ولا في النفير، وتنابز الحاقدون مع الذين دُعوا إلى لا شيء، ولكن عبث بهم في خداع حربي، والحرب خدعة، يجب على سُوَّاسِها أن يكونوا في يقظتهم على أكمل العلم بما يضعف قوة العدو من مسالك السياسة الحكيمة.

قال الزرقاني: وأصل الخداع إبطان أمر وإظهار خلافه، وفيه التحريض على أخذ الحذر في الحرب والندب إلى خداع الكفار. وإنَّ من لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه.

وقال النووي: اتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يجوز.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: ويقع الخداع بالتعريض وبالكمين ونحو ذلك، وفي الحديث الإشارةُ إلى استعمال الرأي في الحرب، بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة؛ ولذا اقتصر على ما يشير إليه بهذا الحديث.

وقال ابن المنير: معنى «الحرب خدعة» أن الحرب الجيدة لصاحبها، الكاملة في مقصودها إنما هي المخادعة، لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة وحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر.

وإذا استولى الحقد والحسد والشكوك على النفوس أذابتها، ومزقت أوصالها فلم تعد تصلح لتجمع يستهدف شيئًا من توافه الأمور في الحياة، بله حرب ضارية اتخذت لها كل أهبة، إلا أهبة الصدق في الولاء والإخلاص بين المتحزبين، إخلاصًا يوحد بينهم وحدة لا تعرفها خدع الحروب.

وفي اتخاذ الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزاري وصاحبه الحارث بن عوف المري حجر الزاوية لهذه السياسة الحكيمة نموذج لما خُصَّ به رسول الله ﷺ من العلم بأسرار النفوس الإنسانية وتطلعاتها المختلفة التي تستهويها الخدع الحربية والوعود المادية، فتخلع عليها جلابيب زعامة المتحزبين، وتريهم أنهم هم المقدمون في مصائر الأمور.

وعيينة وصاحبه الحارث لم يكونا في واقعهما من ذياك الطراز الذي تُعصَب به الأمور وتعقد عليه العقد والعهود، ولكنهما كانا طعمة لصيد حذر إن جرى الحديث مع غيرهما كأبي سفيان بن حرب، فإنه كان في دهيه ومعرفته لمواقع المكائد أثقل من أن يستخف فيخدع، وكانت له في المجتمع المسلم تِراتٌ وأحداثٌ أدمت قلوب قريش وهو زعيمها

وصاحب كلمتها وقائدها في حروبها بعد (بدر) فليس من السهل بيعها في سوق النسيان أو التناسي بشيء من متاع زائل لا يغسل بمائه دماء قريش في (بدر).

بيد أن الأحمق المطاع وصاحبه لم يكن لهما في سوابق الأحداث وجود، فهما أسرع إلى الاستجابة إلى حل عقدة التحزب لينفرط عقد التحزب بين الأحزاب، ولم يكونا يستهدفان من انتظامهما في سلك الأحزاب إلا الحصول على كسب رخيص، فاتُّخِذا مطيةً ذلولًا لطبيعتهما وطبيعة موقفهما.

وقد كان المقصود الحقيقي من الحديث معهما في هذا الإطار، واختيارهما له هو إحداث تخلخل في عواصم التحزب وتمزق في روابط التجمع، وإحلال الشك في هذه العواصم والروابط لتنفصم عراها وتتبدد وصائلها وتتبعثر حشودها الظالمة.

ولم يقصد النبي ﷺ أن يجعل من هذا الحديث والمراوضة مع عيينة والحارث حقيقةَ مصالحةٍ تجري بينه ﷺ وبينهما، وإنما أراد ﷺ -فيما يظهر لنا- هذا المعنى الذي أبرزناه ليكون مبعث شك في روابط التحزب التي تربط هذه الحشود المتكالبة على حرب المجتمع المسلم.

وأما بالنسبة لكتائب الجهاد من المجتمع المسلم فقد أراد ﷺ -فيما يظهر لنا أيضًا- إثارةَ النخوة الإيمانية فيهم، وشحذ وتجديد قواهم، وتمحيص يقينهم وتثبيتهم على الجادة أمام نوازل البلاء والمحن، وكشف حقيقة أعدائهم،

وأنهم لم يكونوا في تجمعهم وتحزبهم يستهدفون غاية يقاتلون لتحقيقها، وإنما جاءوا ليشتروا الدنيا بالآخرة والكفر بالإيمان.

وقد يكون في قول النبي ﷺ وهو يرد على سعد بن معاذ في مشاورته «بل هو شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما» ما يشير إلى أنه ﷺ أراد أن يتخذ في الموقف بعد أن تعقدت فواصله نوعًا من السياسة التي تمزق شمل المتحزبين، وتفرق جموعهم، وتشتت كلمتهم، فيخفف تكالبهم على المجتمع المسلم، وتضعف قوة تجمعهم دون أن يجعل لهم سبيلًا إلى مدينته وثمارها أو التحكم في أمر من أمورها.

وفي موقف الصحابة رضي الله عنهم في مشاورتهم وإفصاحهم لرسول الله ﷺ عن قوة عزيمتهم يظهر صدق إيمانهم ورسوخ يقينهم، وثبات أقدامهم؛ لأنهم سألوا رسول الله ﷺ إن كان ما يعرضه عليهم للمشاورة أمرًا من عند الله، فهم مسلمون لأمر الله، لا يخالفونه، وإن كان ما يعرضه عليهم أمرًا يحبه ﷺ فيصنعونه محبة فيما يحبه ويرضيه، وإن كان ما يعرضه عليهم أمرًا يريد به ﷺ الرحمة بهم والشفقة عليهم لما يراه قد حل بهم من شديد البلاء وعظيم المحن، فإننا لا نرضى لأنفسنا بتقبله والرضا به، وثارت نخوتهم الإيمانية،

ورأى ﷺ قوة عزائمهم، وقال لسعد بن معاذ وهو متكلم القوم: «فأنت وذاك» وأسرع سعد إذ رأى الرضا في وجه رسول الله ﷺ إلى الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة، وقال كلمته المعبرة عن صادق إيمانهم وصوارم عزائمهم: «فليجهدوا علينا، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم» وأقر الله عين رسول الله ﷺ بصدق إيمان أصحابه وقوة عزائمهم.

قصة نعيم بن مسعود وتخذيل الأحزاب عن مواقفة المسلمين

أقام رسـول الله ﷺ والمسـلمون محاصرون يظللهم الصبر على شـدائد الموقـف ولأواء المحنة وأزماتها دون اشـتباك في قتال بيـن الفريقين، كما طال الحصـار على جموع الأحزاب، واسـتولى عليهم الملل وأضجرهم الموقـف، ولم يكن لديهم مـن الصبـر مـا يعينهـم على تحمـل شـدائد الموقـف، فتهيأ بعض فرسـانهم وتلبسوا للقتال، واسـتحكم بالناس الخوف، واستشـرى بهم الرعب واشتدت الأزمات، وبقي الحصار بضع عشـرة ليلة في قول الأكثر، وذكر صاحـب العيون أن الحصار بقي بضعًا وعشـرين ليلة، قريبًا من شهر، وجزم ابن القيم بأنه بقي شهرًا.

رأي ونظر في رواية لتأويلها -إذا صحت- تأويلًا يضعها في إطار السياسة المحكمة:

فـي غمرة هذه الشـدائد التي أخـذت بخنـاق المحاصَرين والمحاصِرين جاء نعيم بن مسعود الأشجعي إلى رسول الله ﷺ وكان نعيـم رجلًا نمومًا -كما ذكره ابن حجر عن ابن إسـحاق من حديث عائشة- قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان عن عروة، عن عائشـة أن نعيمًا كان رجلًا نمومًا -أي ينم الحديث وينقلـه- قـال الزرقانـي: وكان نعيم رجلًا نمومًـا - وأن النبي

ﷺ قال له: «إن اليهود بعثت إليَّ: إن كان يرضيك أن نأخذ من قريش وغطفان رُهُنًا ندفعهم إليك فتقتلهم فعلنا» فرجع نعيم مسرعًا إلى قومه فأخبرهم، فقالوا: والله ما كذب محمد عليهم، وإنهم لأهل غدر، وكذلك قال نعيم لقريش فكان ذلك سببًا في خذلانهم ورحيلهم.

هذه الرواية -إن صحت- فهي من قبيل السياسة الحربية التي يكون فيها الرأي أنفع من الشجاعة والمواجهة، وتدخل تحت معنى حديث «الحرب خدعة».

وكان النبي ﷺ يتطلع إلى كشف الكرب عن أصحابه، فلما جاءه نعيم وكان يعلم من حاله قبل الإسلام أن صدره يضيق بحديث سمعه دون أن يفشيه ويتحدث به، فذكر له النبي ﷺ ما ذكر عن اليهود بأسلوب التعريض والتورية، فأخذ نعيم ما ألقى إليه رسول الله ﷺ من الحديث، فنقله إلى بعض زعماء غطفان وقريش، وبدأ الفشل يسري بين حشود الأحزاب فافترقت كلمتهم وانفرط عقدهم.

ولابن إسحاق رواية أخرى في قصة نعيم بن مسعود أجمع لتفصيل الوقائع، وهي أشهر من الرواية المتقدمة، وأقعد أسلوبًا ومسلكا، قال ابن إسحاق: إن نعيمًا أتى النبي ﷺ فقال له: إني أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال النبي ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذِّل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة».

خطة ماكرة يضعها عقل دهي مجرب فتصيب من الأحزاب مقاتلهم:

فخــرج نعيم حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديمًا فقال: قد عرفتــم وُدِّي إياكــم وخاصة ما بيني وبينكــم، قالوا: صدقت، لســت عندنــا بمتهم، فقــال لهم: إن قريشًــا وغطفان ليســوا كأنتــم، البلــد بلدكــم، بــه أموالكــم وأبناؤكم ونســاؤكم، لا تقدرون أن تحولوا منه إلى غيره، وإنهم قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيــره، فإن رأوا نهزة(٢٠) أصابوهــا، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبينه ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكــم، فلا تقاتلــوه معهم حتى تأخذوا منهم رُهُنًا من أشــرافهم يكونــون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلــوا معهم محمدًا حتى تناجزوه، فقالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم أتى نعيم قريشًــا، فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم وُدِّي لكم وفراقي محمدًا، وإنه قد بلغني أمرٌ رأيت حقًا عليّ أن أبلغكموه نصحًا لكم، فاكتموه عني، قالوا: نفعل، فقال لهم: إن يهود ندموا على ما صنعوا وأرســلوا إلى محمد: إنَّا قد ندمنا علــى ما فعلنا، أيرضيــك أن تأخذ من أشــراف قريش وغطفان رجالًا تضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: «نعم».

(٢٠) نهزة: فرصة (تكملة المعاجم العربية). (المجلة).

قال نعيم يتابع حديثه مع قريش وغطفان: فإن بعثتْ إليكم يهود يلتمسون منكم رُهُنًا فلا تدفعوا إليهم رجلًا واحدًا، ثم أتى نعيم غطفان، فقال: إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إليَّ ولا أراكم تتهموني، قالوا: صدقتَ، ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل، فقال لهم مثل ما قال لقريش.

قال ابن إسحاق: وكان من صنع الله لرسوله أن أبا سفيان ورءوس غطفان أرسلوا إلى بني قريظة عكرمة في نفر من القبيلين، فقالوا: لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر، فأعِدُّوا للقتال حتى نناجز محمدًا ونفرغ ممَّا بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم إن اليوم يوم السبت لا نعمل فيه شيئًا، وكان قد أحدث فيه بعضُنا حدثًا فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بمقاتلين معكم حتى تعطونا رُهُنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدًا، فإنَّا نخشى إن اشتد عليكم القتالُ أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا، ولا طاقة لنا به، فقالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم نعيم به لحقٌّ، فأرسلوا إليهم: إنا والله لا ندفع إليكم رجلًا واحدًا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا. فقالت قريظة: إن الذي ذكر لكم نعيم لحقٌّ. فأرسلوا إليهم: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنًا، فأبوا عليهم، وخذَّل الله بينهم، وبعث الله عليهم الريح في ليالٍ شديدة البرد، فأكفأت قدورهم، وطرحت أبنيتهم.

بحث وتحقيق
في روايات قصة نعيم بن مسعود

قصة نعيم بن مسعود الأشجعي في غزوة الأحزاب، وتخذيله لهم عن موافقة المجتمع المسلم بقيادة النبي ﷺ قصة مستفيضة، مشهورة متعالمة، وقع على روايتها إجماعُ أهل المغازي والسير وذكرها كثير من المحدثين.

قال ابن حجر في الفتح: وذكر أهل المغازي أن نعيم بن مسعود الأشجعي ألقى بين الأحزاب الفتنة فاختلفوا، وذلك بأمر النبي ﷺ له بذلك.

اختلاف الروايات في قصة نعيم بن مسعود:

وقد قدمنا أن ابن إسحاق ذكر فيها روايتين، أولاهما من طريق يزيد بن رومان عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها، جاء فيها أن النبي ﷺ قال لنعيم -وهو رجل نموم: «إن يهود بعثوا إليّ: إن كان يرضيك أن نأخذ لك رُهُنًا من أشراف القوم تقتلهم فعلنا» فذهب نعيم بهذا إلى قومه غطفان، وإلى قريش، فحدَّثهم بما عنده، فكان ذلك سبب فرقتهم وخذلانهم ورحيلهم.

نقد رواية ذكرها ابن حجر في الفتح ووجوب تأويلها إذا صحت:

وهذه الرواية ذكرها ابن حجر في الفتح، وهي بأسلوبها التي رويت به لا يمكن أن تقبل لتدخل تحت معنى حديث «الحرب خدعة»؛ لأن العلماء كما قدمنا استثنوا من عموم ذلك

أمـورًا لا يجوز أن يشـملها المقصود من الحديـث، وذلك بأن يكـون الخداع فيه نقض عهد أو أمان، وهـذا من قبيل التمثيل والشاهد.

وصريح الكذب أوجب أن يُستَثنى من الجواز؛ لأنه مما اتفق عليه العلماء سـلفًا وخلفًا أن الأنبياء معصومون عن الكذب لا يقع منهم قط.

ولهـذا قلنا بأن هـذه الرواية -إن صحـت- وجب أن تكون إنما جاءت بأسـلوب المعاريض والتورية، فتصرَّف فيها الرواة بما يُفهَم منه أن رسول ﷺ قال ذلك بالأسلوب الذي أبعده عن التعريض توهمًا منهم أنه داخل في معنى «الحرب خدعة».

ويـدل على تصرف الـرواة -إن صحت الروايـة، وأن النبي ﷺ لـم يقـل ذلك مبتدأ به نعيم- مجيء هذا الكلام نفسـه في الرواية الثانية من روايتي ابن إسـحاق، وهي الرواية المشهورة المسـتفيضة بيـن أهل العلم، على لسـان نعيم فـي حديثه مع أبي سـفيان بن حرب إذ قال له: إن يهـود ندموا على ما صنعوا وأرسـلوا إلى محمد: إنـا قد ندمنا على ما فعلنـا، أيرضيك أن نأخـذ من أشـراف قريش وغطفان رجـالًا تضـرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نسـتأصلهم، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ: «نعم».

وقـد نقد ابن كثير هذه الرواية، فقال: وهذا الذي ذكره ابن إسـحاق -أي في الرواية الثانية الآتية- أحسن مما ذكره موسى

بن عقبة -أي وهو رواية عن ابن إسحاق أيضًا- وقد أورده عنه البيهقي في الدلائل، فإنه ذكر ما حاصله أن نعيم بن مسعود كان يذيع ما يسمعه من الحديث، فاتفق أنه مر برسول الله ﷺ ذات يوم عشاء، فأشار إليه أن تعالَ، فجاء، فقال: «ما وراءك؟» فقال: إنه قد بعثتْ قريش وغطفان إلى بني قريظة يطلبون منهم أن يُخرجوا إليهم فيناجزوك، فقالت قريظة: نعم فأرسلوا إلينا بالرهن.

قال ابن كثير: وقد ذكرنا فيما تقدم: أنهم إنما نقضوا العهد على يدي حيي بن أخطب بشرط أن يأتيهم برهائن تكون عندهم توثقة.

قال ابن كثير: قال البيهقي: فقال له رسول الله ﷺ: «إني مُسِرٌّ إليك شيئًا فلا تذكره»، قال البيهقي: فقال له -أي النبي ﷺ في زعم هذه الرواية-: «إنهم قد أرسلوا إليَّ يدعونني إلى الصلح، وأردّ بني النضير إلى دورهم وأموالهم»، فخرج نعيم بن مسعود عامدًا إلى غطفان، وقال رسول الله ﷺ: «والحرب خدعة وعسى أن يُصنَع لنا» فأتى نعيم غطفان وقريشًا فأعلمهم، فبادر القوم وأرسلوا إلى بني قريظة عكرمة وجماعة معه، واتفق ذلك ليلة السبت، يطلبون منهم أن يخرجوا للقتال معهم، فاعتلت إليهم بالسبت، ثم أيضًا طلبوا الرهن توثقة، فأوقع الله بينهم، واختلفوا.

قال ابن كثير: قلت: وقد يحتمل أن تكون قريظة لما يئسوا من انتظام أمرهم مع قريش وغطفان بعثوا إلى رسول الله ﷺ يريدون منه الصلح على أن يرد بني النضير إلى المدينة.

ولم يكن ابن كثير في نقده لرواية موسى بن عقبة التي أوردها البيهقي عنه في دلائله صريحًا، ولم يبين الجهة التي كانت بها رواية ابن إسحاق المطولة المفصلة أحسن من رواية موسى بن عقبة، وهي أيضًا رواية ذكرها ابن إسحاق.

ومغازي موسى بن عقبة أوثق عند أئمة هذا الشأن من سيرة ابن إسحاق ومغازيه فيها.

واكتفى ابن كثير بسوقه الرواية على ما فيها مما لا ينبغي أن يُسنَد إلى رسول الله ﷺ من صريح الكذب إدخالًا له تحت قوله ﷺ: «الحرب خدعة»، وأنه قال لنعيم بن مسعود: «إني مُسِرٌّ إليك شيئًا فلا تذكره، إنهم -أي بني قريظة- أرسلوا إليَّ يدعونني إلى الصلح وأردّ بني النضير إلى دورهم وأموالهم».

وقد عقب ابن كثير على رواية موسى بن عقبة التي أوردها البيهقي بما يشعر بعدم اطمئنانه إلى قبول هذه الرواية بما جاء فيها من نسبة الكذب إلى رسول الله ﷺ، وهو معصوم عنه بإجماع العلماء من السلف والخلف إلا شراذم لا يعتد بخلافهم.

فقال في تعقيبه: قلت: وقد يحتمل أن تكون قريظة لما يئسوا من انتظام أمرهم مع قريش وغطفان بعثوا إلى رسول الله ﷺ يريدون منه الصلح على أن يرد بني النضير إلى المدينة.

وهـذا الاحتمال واضح جدًا فـي إرادة ابن كثير صرف الرواية عن ظاهرها لتبرأ مما نسبته إلى النبي ﷺ مما لا يليق بعصمته في نبوته.

أما الرواية الثانية من روايتي ابن إسحاق وهي المشهورة بين أهل العلم وأصحاب السـير والمغازي والمعتمدة عندهم، وقد ساقها ابن سعد في طبقاته مختصرة بتصرف غير مخلٍ، وليس فيهـا عنـده ذكر أن اليهـود بعثوا للنبي ﷺ بأنهـم ندموا على نقض عهده، ولا أن ذلك كان من نعيم في حديثه مع أبي سفيان بـن حـرب، وعدم ذكر ذلك أقرب إلى سـياق القصـة وجوِّها، وأنسـب بترك حرية التصرف في الموقف إلى نعيم بن مسعود يزنـه بميزان ما يحتف به مـن أحوال، وهو صاحبه الذي عرض على النبي ﷺ أن يقوم فيه بما يستطيع تحقيقًا لقول النبي ﷺ حينمـا عرض عليه نفسـه: «إنما أنت رجل واحـد فينا، فخذِّلْ عنا ما استطعت».

ومـن ثم رأينا أن سـياق ابن سـعد للقصة موجـزةً خاليةً من التفاصيل التي تختلف فيها الروايات أقعدُ وأحكمُ.

رواية ابن سعد أقرب إلى القبول لخلوها مما يوقع في الشبهات:

قال ابن سـعد: وكان نعيم بن مسـعود الأشـجعي قد أسلم فحسـن إسـلامه، فمشـى بين قريش وقريظة وغطفـان، وأبلغ هـؤلاء عن هـؤلاء كلامًا، وهؤلاء عـن هؤلاء كلامًـا، يرى كل حـزب منهم أنـه ينصح له، فقبلـوا قوله، وخذَّلهم عن رسـول الله ﷺ، واسـتوحش كل حزب من صاحبـه وطلبت قريظة من

قريــش الرهن حتى يخرجوا فيقاتلــوا معهم ، فأبت ذلك قريش واتهموهم ، واعتلت قريظة بالســبت ، وقالوا لا نقاتل فيه ؛ لأن قومًا منا عدَوا في الســبت فمُســخوا قردة وخنازيــر ، فقال أبو ســفيان : ألا أراني أســتعين بإِخوة القردة والخنازير ؟ وبعث اللّٰه الريح ليلة الســبت ففعلت بالمشــركين وتركــت ، لا تُقر لهم بناءً ولا قدرًا .

مُثُل وشواهد من منهج الرسالة في قصة نعيم بن مسعود

وفي قصة نعيم يوم الأحزاب مثل وشواهد من منهج الرسالة الخالـدة جعلت منها إطارًا لما ينبغـي أن يكون عليه المجتمع المسـلم إذا تفاقمـت بـه الأزمـات، واسـتحكمت الشـدائد، وأحاطـت به الكوارث، وقاسـيات البلايا والمحـن، واكتنفته المـآزق، وتملكـه الرعـب والجزع، واسـتولى عليـه الخوف والهلع، واسـتحوذ عليه الاضطراب والفزع، وسُدَّتْ في وجهه أبواب المخارج من المضايق.

وجعلـت منه إطـارًا لما كشـفت عنه الأحـداث من محكم السياسة التي تصرفت في دائرتها قيادة هذا المجتمع من حسن التدبيـر، وإحكام الـرأي في كيد الأعداء الـذي أُخرِج في إبانه بعد أن توافرت دواعيه.

وأول ذلـك أن تلجـأ القيـادة الحكيمة إلى الـرأي الرصين الحكيـم تسـتثيره وتوقظه ليتحرك فـي اتجاه النظـر في بؤره المجمعـة لقـوة الأعـداء، ومصادرهـا وعناصـر تركيبها حتى تتعـرف إلى مـا فيها مـن شـروخ يسـترها النفـاق والدعاوى الكاذبة، فتعمد إلى كشـفها وتسليط سياسـة تمزيق الروابط بين عناصر تلك القوة التركيبية حتى تتفكك وسـائل الترابط الزائف بين تلك القوة المتورمة في حشود العدو.

وجوب إعداد قوة مخابرات تعمل بمهارة جريئة متثبتة:

ويسبق ذلك إعداد العناصر القوامة بما يطلب منها في شأن تفريق كلمة العدو لتؤدي واجبها دون أن يتنبه لها العدو، مما يوجب أن يؤخذ وهو مستغرق في غفلة الغرور عن تدبير ما يدبر له.

وإذا دلف إلى القيادة عنصر من عناصر الكيد والمكر بالعدو[٢١] وجب على القيادة أن تضع هذا العنصر دون شعور منه تحت مخبار التجربة بعيدًا عن جو ما يكلفه من عظائم الأحداث.

وإذا أظهرت التجربة صحة الوضع في هذا العنصر الطارئ وجب على القيادة أن تسرع إلى انتهاز الفرصة المتاحة لاستغلالها في سرعة وإتقان، ومباعدة للشك والاسترابة مع اليقظة المتوثبة بالمشاعر المرهفة.

وهذا هو الجانب المنهجي في هذه القصة الذي أقامه رسول الله ﷺ على دعائم السياسة الحكيمة المحكمة التي يجب أن تكون سطرًا في دروس التربية للقادة والدعاة في رسالة الإِسلام.

وقد جاء نعيم بن مسعود مسلمًا يكتم إيمانه، وقال للنبي ﷺ: يا رسول الله، إني أسلمت ولم يعرف قومي بإسلامي فمرني بما شئت، وكانت الأمور قد بلغت بالمسلمين

(٢١) دلف إلى كذا مشى إليه. والمراد إذا شعر القائد بمكر وكيد من أحد المقربين منه في القيادة. (المجلة).

المدى من الشدائد والمحن والتأزمات، وكان رسول الله ﷺ يترقب الفرج ويستشرفه من آفاق العزة الإلهية، فأسرع إلى توجيه نعيم مثيرًا في نفسه مشاعر الصدق والإخلاص في أن يعمل عملًا يسجله له تاريخ الجهاد الإسلامي، ويرفع به عن المجتمع المسلم آصار الحصار والشدائد، ويدخل على قلب رسول الله ﷺ السرور بتفريج ضائقة أصحابه، وقال له رسول الله ﷺ في توجيهه: «إنما أنت رجل واحد فينا» أي فماذا تستطيع أن تفعل وحدك في تراكم المعضلات والبلايا التي أحاطت بكتائب الجهاد؟

وهذا في الحقيقة إغراء يحرك الحمية في نفس نعيم، وقد أشار إليه رسول الله ﷺ إلى ما يستطيع أن يعمله من عمل قد يكون انفراده به مساعدًا على نجاحه فيه فقال له: «خذِّلْ عنا ما استطعت».

حمل نعيم هذا التوجيه القيادي من القائد الأعظم رسول الله ﷺ، ومضى به إلى الأحزاب يكيدهم ويمكر بهم ويخادعهم حتى أنجز فيه ما أراده رسول الله ﷺ، فألقى بينهم بذور الشك، وجعل بأسهم بينهم، مع ما أنزل الله تعالى من آيات غيبية معجزة لنبيه ﷺ، من الريح التي أكفأت قدورهم وهدمت بنيانهم، مع شدة البرد التي أهرأت أجسامهم بصقيعها، فترحلوا مدحورين.

قصة حذيفة بن اليمان ودخوله بين الأحزاب ليأتي بأخبارهم

قصة دخول حذيفة بن اليمان -رضي الله عنهما- بين حشود الأحزاب، وتخلله جموعهم وتولجه بين صفوفهم بأمر النبي ﷺ ليتعرف له أخبارهم، ويسبر أحوالهم ويكشف عن أسرارهم، وما نزل بهم من كوارث البلاء، وفوادح المحن، وما تفعله بهم الريح التي أرسلها الله تعالى عليهم مع جنود غيبه من التدبير وجوائح الخطوب وقاصفات العواصف ومزلزلات الكروب، مما جعل مقامهم من ميدان المعركة محالاً مع ما أصابهم من تفكك عُرى روابطهم الزائفة التي شتتت شملهم، ومزّقت كلمتهم حتى شغل كل فريق منهم بنفسه عن نفسه لما واقعهم من مفاجآت النوازل وصاخات المصائب حتى رحلوا وهم على أبشع حال من البلاء -من أشهر قصص المغازي، وأكثرها استفاضة، وأوسعها تداولًا، وأثبتها رواية.

فقد ذكرها مسلم في صحيحه، ورواها من المتقدمين موسى بن عقبة وابن عائذ، وابن إسحاق والواقدي، وابن سعد، والحاكم، والبيهقي وأبو نعيم، ونقلها عن هؤلاء من جاء بعدهم كاليعمري في العيون، وابن حجر في الفتح، وابن كثير، في تاريخه (البداية والنهاية) وابن القيم في الهدي

والقسطلاني مع شارحه الزرقاني في المواهب.

وقد اختلفت رواياتهم بالإجمال والتفصيل، والزيادة والنقص، والإسهاب والإيجاز، بيد أنه ليس فيها رواية خارجة عن هدف القصة المقصود بها، بل إنها كلها تبين الاتجاه المنهجي في السياسة القيادية المحكمة التي جعلها النبي ﷺ أساسًا لتربية أمته، ونموذجًا للتأسي به عند استحكام الأزمات والشدائد، ودرسًا لتربية المجتمع المسلم على ثباته أمام عاصفات الأحداث، والتحرك الإيجابي لحل معضلاتها بعيدًا عن الاستسلام المضعف للنخوة الإيمانية، هذا الاستسلام الذي يجعل من الصبر على البلاء يأسًا مقعدًا، يصيب مداخل النفس بالشكوك والحيرة التي تبدد التفكير، وتشل مدارك العقل وتفسد التدبير.

ونحن نسوق ما يحضرنا من هذه الروايات ليكمل بعضها بعضا ليبرز ما فيها من معالم المنهج.

الفدائية الصامتة في هدوء لا يفقدها الشجاعة هي السمة العليا للمخابرات في منهج الإسلام:

قال ابن سعد: وبعث رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان إليهم ليأتيه بخبرهم، وقام رسول الله ﷺ يصلي تلك الليلة، فقال أبو سفيان بن حرب: يا معشر قريش، إنكم لستم بدار مقام، لقد

هلك الخف والحافر، وأجـدب الجناب، وأخلفتنا بنو قريظة، ولقد لقينا من الريـح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل، وجلس على بعيره وهو معقول، ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم، فما أطلـق عقاله إلا بعدمـا قام، وجعل الناس يرحلون وأبو سـفيان قائـم حتى خف العسـكر، فأقـام عمرو بن العـاص، وخالد بن الوليد في مئتي فارس ساقة للعسكر، وردءًا لهم مخافة الطلب.

فرجع حذيفة إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك كله، وأصبح رسـول الله ﷺ وليس بحضرته أحد من العساكر، وقد انقشعوا إلى بلادهم، فأذن رسـول الله ﷺ للمسلمين في الانصراف إلى منازلهم، فخرجوا مبادرين مسرورين بذلك.

وقـد ذكـر الزرقانـي في شـرح المواهب روايـة أخرى لابن إسـحاق قال فيها إنــه لما طال المقام علـى قريش وقتل عمرو بن عبد ود، وانهزم من معه اتعدوا أن يغدوا جميعًا ولا يتخلف منهم أحد، فباتوا يعبئون أصحابهم ثم وافوا الخندق قبل طلوع الشـمس، وعبأ رسـول الله ﷺ أصحابه، وجمعهم على القتال ووعدهم النصر إن صبروا، والمشـركون قد جعلوا المسلمين في مثل الحصـن من كتائبهم، فأحدقوا بكل وجه من الخندق، ووجهـوا على خيمتـه ﷺ كتيبة عظيمة غليظـة فيها خالد بن الوليـد، فقاتلوهـم يومهم ذلـك إلى هـويٍّ من الليـل ما يقدر

ﷺ ولا أحـد مـن المسـلمين أن ينزلوا عـن مواضعهم ولا إلى صـلاة ظهر ولا عصر، ولا مغرب، ولا عشـاء، فجعل الصحابة يقولون: ما صلينا، فيقول ﷺ: «ما صليت» حتى كشفهم الله، فرجعوا متفرقين، ورجع كل فريق منهم إلى منزله.

وأقام أسيد بن حضير في مئتين على شفير الخندق، فكرت خيل المشركين، وعليها خالد يطلبون غِرَّة، فناوشوهم ساعة، فزرق[٢٢] وحشـي بن حرب الطفيل بن النعمان أحد بني سلمة بمزراقه فقتله وانكشـفوا، وسـار رسول الله ﷺ إلى قبته، فأمر بلالًا فأذن وأقام، وصلى الظهر ثم أقام لكل صلاة إقامة، فصلوا مـا فاتهـم، وقـال ﷺ: «شـغلونا عـن الصلاة الوسـطى صلاة العصر، ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا».

ولم يكن بعد قتال حتى انصرفوا، لكنهم لا يدعون الطلائع بالليـل يطمعون في الغارة، وما أتت علينا ليلة أشـد ظلمة ولا ريحًا منها، وجعل المنافقون يسـتأذنون النبي ﷺ ويقولون إن بيوتنا عورة، فما يستأذن أحد منهم إلا أذن له، فيتسللون.

وفي رواية عند الحاكم أن رجلًا قال لحذيفة: أدركتم رسول الله ﷺ ولـم ندركه؟ فقال حذيفـة: والله يا بن أخي لا ندري لو أدركته كيف تكون؟

(٢٢) زرق: رمى، قذف. (تكملة المعاجم العربية). (المجلة).

لقد رأيتنا ليلة الخندق في ليلة باردة مطيرة، فقال ﷺ: «من يذهب فيعلم لنا علم القوم جعله الله رفيق إبراهيم يوم القيامة؟» فوالله ما قام أحد، فقال الثانية: «جعله الله رفيقي» فلم يقم أحد، فقال أبو بكر: ابعث حذيفة، فمر بي النبي ﷺ وأنا جاث على ركبتي من شدة البرد والجوع والخوف، فدعاني، فلم يكن لي بد من القيام، فقال: «اذهب فأتني بخبر القوم» ودعا لي، فقال: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته» فأذهب الله عني القر[٢٣] والفزع، فمضيت كأنما أمشي في حمام، فلما وليت ناداني، وقال: يا حذيفة لا تحدث في القوم شيئًا حتى تأتيني».

فدخلت عسكرهم فإذا الريح فيها لا تجاوز شبرًا، فلما رجعت رأيت فوارس في طريقي فقالوا: أخبر صاحبك أن الله قد كفاه القوم.

وعند ابن إسحاق من طريق يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة: أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد، قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا.

(٢٣) القُر: البرد. (المجلة).

قــال حذيفة : والله لقــد رأيتني بالخندق ، وصلــى النبي ﷺ هويًــا من الليــل ، ثم التفت إلينــا فقال : « من رجــل يقوم فينظر مــا فعل القوم ثم يرجع » يشــرط له الرجعة « أســأل الله أن يكون رفيقي في الجنة » فما قام رجل من شــدة الخوف ، وشــدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد دعاني فلم يكن لي بد من القيام ، فقال : « يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يفعلون ، ولا تحدثن شــيئًا حتى تأتينا » فذهبت فدخلت فيهم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قدرًا ، ولا نارًا ، ولا بناء .

فقــال أبو ســفيان : لينظر امــرؤ من جليســه ، فأخذت بيد الرجــل الــذي كان جنبــي فقلــت : من أنــت ؟ فقــال : أنا فلان ابن فلان ، ثم قال أبو ســفيان : يا معشــر قريــش ، إنكم والله ما أصبحتــم بدار مقام ، ولقد هلك الخف والكُراع(٢٤) ، واختلفنا وبنو قريظة ، ولقينا من هذا الريح ما ترون ، ما يطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل ، ووثب على جمله ، فما حل عقال يده إلا وهو قائم ، ولولا عهد رســول الله ﷺ إليّ أن لا تحدث شــيئًا حتى تأتيني ، ثَمَّ شــئت لقتلته بسهم .

فرجعت إلى رســول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض

(٢٤) المعنى: لقد هلكت الإبل والخيل. (المجلة).

نسائه، فلما رآني أدخلني إلى رجليه، وطرح عليَّ طرف المرط، ثم ركع وسجد، وإني لفيه فلما سلم أخبرته الخبر.

وروى البيهقي وأبـي نعيم في دلائلهما عن حذيفة أنه قال: لما دخلت بينهم نظرت على ضوء نار توقد، وإذا رجل أدهم ضخم، يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته وحوله عصبة، قد تفرق عنه الأحزاب، وهو يقول الرحيل الرحيل، ولم أعرف أبا سفيان قبل ذلك، فانتزعت سهمًا من كنانتي أبيض الريش، فوضعته في كبد القوس لأرميه في ضوء النار، فذكرت قوله ﷺ: «لا تحدث في القوم شيئًا حتى تأتيني» فأمسكت ووضعت سهمي، فلما جلست فيهم أحس أبو سفيان أنه قد دخل فيهم من غيرهم، فقال: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، فضربت بيدي على يد الذي عن يميني، فأخذت بيده، فقلت: من أنت؟ قال معاوية بن أبي سفيان، ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي، فقلت: من أنت؟ قال: عمرو بن العاص.

فعلت ذلك خشية أن يفطن بي، فبدرتهم بالمسألة، ثم تلبثت فيهم هنيهة، فأتيت قريشًا وبني كنانة، وقيسًا، وقلت ما أمرني به رسول الله ﷺ بقوله: «ادخل حتى تدخل بين ظهراني القوم» فأتيت قريشًا، فقلت: يا معشر قريش، إنما يريد الناس إذا كان غد أن يقال، أين قريش؟ أين قادة قريش؟ أين رءوس

النــاس ؟ فيقدموكم فتصلوا القتال فيكون القتل فيكم ، ثم ائت بني كنانة ، فقل : إنما يريد الناس إذا كان غد ، فيقال : أين رماة الحَـدَق ، فيقدموكـم فتصلوا القتال ، فيكـون القتل فيكم ، ثم ائت قيسًا ، فقل يا معشر قيس ، إنما يريد الناس إذا كان غد أن يقولوا أين قيس ؟ أين أحلاس الخيل ؟ أين الفرسان ؟ فيقدموكم فتصلوا القتال فيكون القتل فيكم .

ثم عاد حذيفة إلى النبي ﷺ فوجده يصلي ، فأومأ إليه بيده ، فدنا فسـدل عليه من فضل شـملته ، وأخبره خبـر القوم ، وأنه تركهـم يرتحلـون ، والريح تقلـع أوتادهم ، وتطفـئ نيرانهم ، وتلقـي أبنيتهم ، وتكفـئ قدورهم ، وتسـفي عليهـم التراب ، وترميهم بالحصى ، وهم يسمعون في أرجاء معسكرهم التكبير وقعقعة السلاح ، فارتحلوا هرابًا في ليلتهم وتركوا ما استثقلوه من متاعهم ، فغنمه المسـلمون مع عشـرين بعيرًا أرسـلها أبو سفيان إلى حيي بن أخطب -لعنه الله- فحمّلها له شعيرًا وتمرًا وتبنًـا ، فلقيها جماعة من المسـلمين ، فأخذوها وانصرفوا بها إلى رسـول الله ﷺ ، فتوسـعوا بها وأكلوه حتـى نفد ، ونحروا منهـا أبعرة ، وبقي منها مـا بقي حتى دخلوا بـه المدينة ، فلما رجـع ضرار بن الخطاب وكان في رسـالة أبي سـفيان إلى حيي أخبر أبا سـفيان الخبر ، فقال أبو سفيان : إن حييًا لمشئوم قطع بنا ، ما نجد ما نحمل عليه إذا رجعنا .

وقد أورد هذا الحديث -أي قصة حذيفة- مسلم بن الحجاج في صحيحه من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كنا عند حذيفة، فقال له رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت، فقال له حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم يكون معي يوم القيامة»، فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله، ثم قال: «يا حذيفة، قم فأتنا بخبر القوم» فلم أجد بدًا إذ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: «ائتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليّ»، فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهمًا في كبد قوسي وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول النبي ﷺ: «لا تذعرهم عليّ» ولو رميته لأصبته فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله ﷺ فأصابني البرد حين رجعت وقررت، فأخبرت رسول الله ﷺ، وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أبرح نائمًا حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان».

ذكر ابن كثير لرواية الحاكم والبيهقي من دلائله قصة حذيفة:

قال ابن كثير: وقد روى الحاكم والحافظ البيهقي في

الدلائل هذا الحديث - أي قصة حذيفة - مبسوطًا من حديث عكرمة بن عمار، عن محمد بن عبد الله الدؤلي، عن عبدالعزيز بن أخي حذيفة، قال: ذكر حذيفة مشاهدهم مع رسول الله ﷺ، فقال جلساؤه: أما والله لو كنا شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا، فقال حذيفة: لا تمنوا ذلك، لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود، وأبوسفيان ومن معه فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحًا منها في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ، يقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم، ويتسللون، ونحن ثلاث مئة، ونحو ذلك إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلًا رجلًا، حتى أتى عليَّ، وما عليَّ جنة من العدو، ولا من البرد إلا مِرط لامرأتى ما يجاوز ركبتي، فأتاني وأنا جاث على ركبتيّ فقال: «من هذا؟» فقلت: حذيفة، فقال: «حذيفة؟!» فتقاصرت للأرض، فقلت: بلى يا رسول الله، كراهية أن أقوم، فقمت، فقال: «إنه كائن في القوم خبر، فائتني بخبر القوم» وأنا من أشد الناس فزعًا، وأشدهم قرًا، فخرجت، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه

ومــن تحته» فوالله مــا خلق الله فزعًا ولا قرًا فــي جوفي إلا خرج مــن جوفي، فما أجد فيه شــيئًا، فلما وليــت قال: «يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئًا حتى تأتيني» فخرجت حتى إذا دنوت من عســكر القوم نظرت ضوء نار لهم توقد، وإذا رجل أدهم ضخم يقــول بيديه على النار، ويمســح خاصرته، ويقــول: الرحيل، الرحيل، ولم أكن أعرف أبا ســفيان قبل ذلك، فانتزعت سهمًا مــن كنانتي أبيض الريش، فأضعه في كبد قوســي لأرميه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تحدثن فيهم شيئًا حتى تأتيني» فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي.

ثم إني شــجعت نفســي حتى دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس منــي بنــو عامر، يقولــون يا آل عامــر، الرحيل، الرحيــل، لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم لا تجاوز عسكرهم شبرًا، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم، الريح تضرب بها.

ثم إني خرجت نحو رسول الله ﷺ، فلما انتصفت بي الطريق أو نحو من ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارسًا أو نحو ذلك معتمين، فقالوا: أخبر صاحبك أن الله قد كفاه، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشــتمل في شــملة يصلــي، فوالله ما عــدا أن رجعت راجعني القــر وجعلت أقرقف(٢٥)، فأومأ إليّ رســول الله ﷺ بيده فدنوت

(٢٥) القرقفة: الرعدة (لسان العرب). (المجلة).

منه، فأسبل عليّ شملته، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى، فأخبرته خبر القوم، أخبرته أني تركتهم يرحلون.

حكمة ما يرى من التكرار وتعدد الروايات:

نبهنا فيما تقدم أن المقام قد يدعو إلى إيراد روايات يكمل بعضها بعضًا لما بينها من الاختلاف بالزيادة والنقص، والتقديم والتأخير، والإجمال والتفصيل، والإيجاز والإطناب، والتطويل المحكم والإسهاب الجامع، بشرط أن تكون الحاجة إلى استيفاء المعنى المقصود داعية إلى ذلك، وعلى هذا الأساس جاء البحث في قصة حذيفة بن اليمان، وبعثه إلى جموع الأحزاب ليدخل بينهم، ويعلم علمهم، ويتعرف أخبارهم.

وكان اختيار حذيفة لهذه المهمة الشاقة الخطيرة محل اختلاف بين الروايات، وكان جو اختياره متأزمًا شديد البلاء، عظيم المحن، كادت تميل فيه نفوس الصحابة إلى ما لم يكن من خلائقها، لولا مسارعة أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- إلى اختيار حذيفة والإشارة به على النبي ﷺ، ليرفع عن النبي ﷺ ثقل الانتظار بعد ترغيبه ﷺ لمن يندب نفسه لهذه المهمة ترغيبا يقطع حجة من لم يستجب لهذا الترغيب، وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ هو الذي اختاره، وسماه باسمه، وأمره بالذهاب إلى جموع الأعداء وهم يتحرقون غيظًا لما نزل

بهم من شــدة البلاء فلم يجد حذيفة بدًا إذ سماه رسول الله ﷺ باسـمه من القيام، وهو في أشـد حالات البلاء: جوع شـديد، وبرد شديد، ورعب شديد.

وذهب حذيفة إلى جمـوع الأحزاب ودخل بينهم -والظلام الشديد يستره- دخول الفدائي الذي يكتنفه الموت من جميع أكنافه ويحتويه من سـائر جوانبه وهـو لا يبالي، ولكن حذيفة كان حـاذق الـرأي، خبيرًا بتصـرف الأمور إذا تأزمت، سـريع البـادرة، ثابـت اليقين، راسـخ الإيمـان، فطن الفطـرة، زكي الفؤاد، متماسك الشخصية.

وهـذه هـي الصفـات التـي يجـب أن تتوافـر فـي الأفـراد والجماعـات الذين يكونون موضع الثقـة الخاصة للقيادة عند اشتداد الأزمات واستحكام الأخطار.

وقد عـرف حذيفة عن جموع الأحـزاب كل أمرهم، ظاهره وخفيه، لأنه داخلهم مداخلة لم تترك لهم سـرًا إلا كشـفته ولا خبيئًا إلا أعلنته.

وقـد وقعـت له فيهـم عجائب دلـت على أن اختيـاره لهذه المهمـة الخطيرة كان من متنزل التوفيق، فقد عرف ما هم فيه مـن الاضطراب والضيـاع، والرعب والفزع واسـتغلاق الأمور أمامهم استغلاقًا شل تفكيرهم، ولم يجدوا للخلاص من حالهم إلا الاستعداد للهرب.

معالم منهج التربية في الرسالة من أحداث هذه الغزوة:

وقد جرت أحداث هذه الغزوة الممحصة للإيمان في طريق منهج الرسالة الخالدة رسالة الإسلام واضعة الخطوط القيادية التي أدار بها رسول الله ﷺ الموقف في إطار السياسة الحكيمة التي كتبت دروسها التربوية أقلام الكفاح المرير، والنضال الخطير، والصبر على ما لا يطاق من الشدائد والأزمات، واحتمال نوازل البلاء بجلد لا يعرف الاستسلام، مع العمل الدءوب البالغ في مشقته مبلغ الاستحالة البشرية، ولكن رعاية الله وعنايته هما اللتان ألقتا في قلوبهم مغالبة الحياة وأزماتها وشدائدها، وهما اللتان أمدتاهم بالمدد الروحي الذي أذاب في بؤرة إيمانهم كل محنة، وقهر كل بلاء وكارثة، فصبروا وصابروا واحتملوا، ورأوا في رسول الله ﷺ أعظم الأسوة، وهو معهم يشاركهم مشاركة فعلية مشقة العمل وشدائد المحن، وكان ﷺ يواسيهم بنفسه، فهو يجوع أشد مما جاعوا، ويعمل أكثر مما عملوا، ينقل التراب حتى يغمر جلدة بطنه، إذا اشتدت عليهم في حفر الخندق صخرة نزل إليها، وما يزال بها يضربها بالمعول حتى تتزايل فتصبح كثيبا أهيل، وهو عاصب بطنه بحجر من شدة الجوع.

نظر وبحث في آية التأسي به ﷺ:

ولهذا وغيره كانت هذه الغزوة المليئة بالآيات والمعجزات متنزلًا لآية التأسي به ﷺ، فقال تبارك وتعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾

(الأحزاب: ٢١)

فهذا تحريض للمجتمع المسلم في جميع أجياله، وأزمانه وأوطانه، على التسامي بأنفسهم وأخلاقهم وقوة إيمانهم ورسوخ يقينهم إلى آفاق البطولة الروحية والمادية التي تتطلبها المكانة القيادية الإنسانية التي نيطت بهذا المجتمع المسلم.

وهو تحريض لهذا المجتمع على الاعتصام بعظائم الأمور، وإعداد أقرانها لها، مهما تكن محفوفة بمخاطر المحن وشدائد البلاء.

وهو تحريض للمجتمع المسلم أينما كان وجوده من أرض الله على أن يتخذ من الصبر وقاية يتقي بها مزالق الهزاهز أمام أحداث الحياة كيفما كانت شكولها ومضائقها.

وحظ الصحابة -رضوان الله عليهم- من هذه الأسوة أن الله أشهدهم بذواتهم أعمال رسول الله ﷺ، وهي تجري على يديه حركات دائبة في سبيل نشر دعوته وتبليغ رسالته إلى الإنسانية في أرجاء الحياة.

أما حظ من جاء بعدهم من أجيال المجتمع المسلم فهو حظ الحارس الأمين في الحفاظ على ما أسندت إليه أمانة حفظه،

وحراســته بمثل ما كان عليه من سلموا له الأمانة من العمل في الدفاع عن هذه الأمانة، وتبليغها ونشرها في الآفاق.

ولا يكــون المؤمن أمينًا على القيام بحفظ أمانته إلا إذا علم قدرها، وعرف كيف يؤديها كما أديت إليه.

وأسلوب الآية الكريمة يجعل من ذات رسول الله ﷺ بوصفه رسولًا من الله نفس الأسوة لمجتمعه المسلم، فهو ﷺ بوصف أنه رسول الله هو نفس الأسوة، فكل عمل من أعمال رسالته هو موضع للتأســي به، يجب على كل فرد من أفراد مجتمعه وأمته أن يتخذ هذا العمل أسوة له بقدر استعداده الفطري واستطاعته المكتسبة.

وهذه مبالغة قصد بها إفادة أن جميع ما يصدر عنه ﷺ إنما يصدر عنه بوصفه رسول الله، وهذا الوصف موجب لمتابعته في جميع ما يثبت عنه من الأقوال والأفعال على محاملها.

فرســالته ﷺ هــي منبــع التأســي به، وهــذا المنبــع موحد الإمداد بكل ما يكون فيه التأســي والاقتداء، وفي هذا غنية عن الحديــث عن الخصائص البشــرية التي منحها ﷺ فاختص بها واختصت به، لأن أمر هذه الخصائص خارج عن التقيد بوصف الرســالة إلا باعتبارهــا مخبرة عنه، لأن الأصل عموم التأســي، وهذا كالاستثناء المخصص للعموم.

وفـي الآية نكتـة بيانية من متعلقـات الإعجـاز القرآني في هدايته وروعة أسلوبه، وهذه النكتة تعطي معنى التأسي به ﷺ صـورة من قوة الإيمان ورسـوخ اليقين فـي متابعته ﷺ متابعة تجعلها لباب الإيمان وزبدة الإخلاص.

وتلمـح هـذه النكتة فـي قوله تعالـى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾

بعد قوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾

الذي هو في مطلق معناه عين ما جاء بعده في إجمال هذا المعني.

بيد أن قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾

ربط تأسـيهم بزبدة الإخلاص الذي هو مرتبة فوق مرتبة قوة الإيمان.

فإذا كان التأسـي بالنسـبة لصادقي الإيمان الذين صعد بهم إيمانهم إلى ذروة الإخاء كافيا أن يقال فيه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾

باعتبـار عودة ضميـر الخطاب إلـى صادقي الإيمـان، فإنه بالنسـبة لعامة الأمة ممن لم يصـل إيمانهم إلى درجة الإخلاص علمًا وعملًا غير كاف أن يقال فيه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾

بل هـو في حاجة إلى حياطته بشـيء مـن التوثيق في داخل نفوسـهم بشيء من الربط بما هو غيب لا يعرف مكان الإيمان منـه، وليس ذلـك إلا رجاء فضـل الله ورحمته، ورجـاء تفضله

وإحســانه على كل مؤمن لقيه بعقيــدة الإيمان، والرجاء مرتبة بين الإخلاص والإيمان.

ولهــذا عقب ذلك بقوله: ﴿ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ لأن كثرة ذكر الله هــي العروة الوثقى في الربط بيــن الإيمان، ورجاء فضل الله وإحسانه في اليوم الآخر.

ولنختــم الحديــث في هذه الغــزوة التي كانــت أحداثها كلها دروسا تربوية لحياة المجتمع المسلم التي أقام النبي ﷺ دعائمها على الكفاح والنضال، والاستنصار بالله وآياته، وجنود غيبه التي أمد الله بها نبيه ﷺ في جهاده لنشر دعوته وتبليغ رسالته.

انصــرف رســول الله ﷺ بأصحابــه بعــد رحيــل الأحــزاب بحشودهم وجموعهم منهزمين أذلة مدحورين، وبشر النبي ﷺ أصحابه بأن هذه الغزوة هي آخر غزوات أعداء الله وأعداء رســوله ﷺ وأعداء رسالته المهاجمة التي يغزون فيها المجتمع المسلم.

روى البخــاري عن ســليمان بــن صرد من طريــق أبي نعيم، قال: حدثنا سفيان عن أبي اسحاق عن سليمان قال: قال النبي ﷺ يوم الاحزاب: «نغزوهم ولا يغزوننا».

وفي رواية أخرى للبخاري أيضا بسند آخر قال: حدثني عبد الله بن محمد، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا إسرائيل، سمعت أبا إسحاق يقول: سمعت ســليمان بن صرد يقول: سمعت النبي

ﷺ يقول حين أجلي الأحزاب عنه: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم».

وقد صدق الله رسوله ﷺ، فكان هذا الإخبار الصادق علمًا من أعلام نبوته ﷺ إذ أخبر عن أمر مستقبل وقع كما أخبر به ﷺ، قال ابن حجر: فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة، فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها، فكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال ﷺ.

وأخرج البزار من حديث جابر أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب، وقد جمعوا له جموعا كثيرة، «لا يغزونكم بعد هذا أبدًا، ولكنكم أنتم تغزونهم».

وقد كان في هذه الغزوة من آيات الله ومعجزاته الكونية أمور كثيرة، أكرم الله بها نبيه ﷺ، ولو لم يكن فيها إلا ما ذكره الله -تعالى- في كتابه الكريم مما لا يمكن أن يحوم حول حماه شيء من الشك من إرسال الريح والجنود، وما صنعت بجموع الشرك والوثنية من جموع الأحزاب، وإلا ما روي في أصح الصحيح من أحاديث تكثير الطعام القليل وكفايته العدد الكثير حتى أشبعهم وانحرفوا عنه وهو كما وضع، وإلا ما في الصحيح من أحاديث الكدية التي عرضت في حفر الخندق، فنزل إليها النبي ﷺ بالمعول وهو معصوب البطن بحجر من شدة الجوع، فضربها فصارت رمالا سيالة، وإلا ما في حديث

سلمان والبرقات التي برقت حين ضرب ﷺ الصخرة فرأى على ضوئها ﷺ ما يفتح على أمته، فصدقه الله وفتح ما فتح من البلاد التي وطد الله فيها ملك الأمة الإسلامية، وصارت بعد الوثنية أوطانًا للإسلام وهدايته، ولهذا كانت هذه الغزوة جديرة باسم غزوة الإعجاز الكوني والمعجزات الحسية والعقلية.

كما كان فيها من معالم منهج الرسالة ما سجلناه في أحداثها ووقائعها، ونبهنا عليه في آياتها حتى كانت غزوة جامعة لدروس الكفاح المرير، والنضال الخطير، والصبر على لأواء الحياة ومحنها، إلى جانب ما اشتملت عليه من فضل الله بإمداده نبيه ﷺ بنفحات المنن الكونية التي أنزلها حين استحكمت الخطوب، واكفهرت الكروب[٢٦]، ففرج بها مضائق البلاء والمحن، وقشع بريحها سحائب الكوارث، وختمها بتلطفه الذي مسح به عن صدور المؤمنين ما ألم بها من الهواجس والظنون، فعادوا أصفى بصائر وأصلب عزائم، وأرسخ إيمانا وأعمق يقينًا، وأخلص نيات، وهم ينظرون إلى المستقبل بقلوب مشرقة وأفئدة منيرة، يرجون من الله -تعالى- تحقيق ما وعدهم على لسان رسوله ﷺ في بشراه لهم بقوله: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا».

(٢٦) اكفهر الشيء اسود. والمراد هنا استحكام الأزمات. (المجلة).

غزوة بني المصطلق
وهي المريسيع
أسبابها وأحداثها وأحاديثها وآثارها

بنو المصطلق بطن من خزاعة ويرجعون في أصلهم إلى الأزد، والمريسيع تصغير مرسوع وهو من قولهم رسعت العين إذا دمعت من فساد، وهو ماء لبني المصطلق، وفي حديث سفيان بن وبرة، عند الطبراني قال: كنا مع النبي ﷺ في غزوة المريسيع غزوة بني المصطلق.

وقد عنون لها البخاري في صحيحه بما قبسناه منه في عنونتنا لها، وقد اختلف الرواة اختلافًا واسع المدى في زمنها، فعند ابن سعد أنها كانت في السنة الخامسة للهجرة في أول شعبان لليلتين خلتا منه، وهذا من قول قتادة وعروة وغيرهما من قدامى السلف كما رواه البيهقي، ويتفرع على ذلك سبقها للخندق أو تأخرها عنها على أساس وقوعهما في سنة واحدة هي السنة الخامسة للهجرة، وكل قيل به، وسبق الخندق على بني المصطلق ذهب إليه الحاكم أبو عبد الله صاحب المستدرك.

وحكى البخاري عن ابن إسحاق أن غزوة بني المصطلق كانت في شعبان سنة ست، وجزم بهذا الطبري وخليفة بن خياط.

تعقب ابن حجر رواية البخاري بما لا ينبغي ومناقشته في ذلك:

وذكر البخاري عن موسى بن عقبة أن غزوة بني المصطلق كانت سنة أربع من الهجرة، وتعقبه ابن حجر بما لا ينبغي فقال: وكأنه سبق قلم، أراد -أي البخاري- أن يكتب سنة خمس فكتب سنة أربع.

ثم بين ابن حجر أن هذا القول خلاف ما روي في مغازي ابن عقبة فقال: والذي في مغازي ابن عقبة من عدة طرق رواها الحاكم، وأبو سعيد النيسابوري في (شرف المصطفى) والبيهقي في الدلائل أنها كانت سنة خمس، ويؤيده ما أخرجه البخاري في الجهاد عن ابن عمر: أنه غزا مع النبي ﷺ بني المصطلق في شعبان سنة أربع ولم يؤذن له في القتال، لأنه إنما أذن له في يوم الخندق، وهي بعد شعبان سواء قلنا إنها كانت في سنة خمس أو في سنة أربع.

ويعارض قول ابن حجر أن الذي في مغازي موسى بن عقبة من عدة طرق.... أنها كانت سنة خمس، أن هذه الروايات التي أخرجها الحاكم وأبو سعيد النيسابوري، والبيهقي لو كانت ثابتة عند البخاري فلماذا تركها واقتصر على سنة أربع

عند موسى بن عقبة ؟ وروايات الحاكم وأبي سعيد النيسابوري ، والبيهقـي لا ترد بها رواية البخـاري الثابتة في صحيحه ، بل لا تساويها فضلًا عن أن تتقدم عليها .

ودعوى ابن حجر أن رواية سـنة أربـع التي حكاها البخاري عن موسى بن عقبة سبق قلم من البخاري دعوى لا دليل لها ، ورد روايات الصحيح بهذه الأوهام لا يصح الاعتماد عليه والاعتداد به ، وكيف يمضـي البخاري في صحيحه علـى هذا الغلط دون أن يصححه هو أو ينبه عليه أحد من تلاميذه وقارئي صحيحه وشارحيه قبل وجود ابن حجر وهم عشرات الألوف ؟ هذا من أبعد البعد .

وقد أشـار القسطلاني وشارح مواهبه الزرقاني إلى نقد كلام ابن حجر ، فقالا : قالوا وكأنه سبق قلم من البخاري أراد أن يكتب سـنة خمس فكتب سنة أربع سـهوًا وهو عجيب ، وأعجب منه أن يسـير هذا الغلط مع قافلة الزمن قرونًا كثيرة ، فلا يتنبه إلى تصحيحه أحد من شـارحي هذا الكتـاب قبل مجيء ابن حجر ؟ ولا نـدري كيف تشـتبه على الإمـام البخاري الخمـس بالأربع وحروفهمـا متغايـرة تغايرًا كليًا ، ومعناهمـا في موضعهما من الروايات يبعد الاشتباه بينهما ؟ وإذا كان السهو هو الذي جمح بقلـم البخاري فكيف فات على قارئـي الصحيح وهم ألوف أن يصححوا ما سبق إليه قلمه ؟

وترك تصحيح غلط سَبْقِ الأقلام إلى ما لم يقصده حاملوها دون تنبيه عليه لا سيما في أمهات الكتب وأصول مراجع التراث الإسلامي وشريعته يفتح الباب أمام شكوك وأوهام ترفع الثقة بهذه الكتب، وتهز الإيمان بصحة روايات السنة المطهرة وأحداثها ويجعل للمتقولين عليها سلطانًا ينزلها عن الذروة في الاحتجاج بها مع آيات القرآن الكريم.

ودعوى تأييد قول من رد القول بأنها كانت سنة أربع بحديث ابن عمر الذي أخرجه البخاري في الجهاد، وأنه غزا مع رسول الله ﷺ بني المصطلق في شعبان وابن عمر سنة أربع لم يؤذن له في القتال، وإنما أذن له فيه في الخندق وهي بعد شعبان، سواء قلنا إنها سنة خمس أو سنة أربع -لا تأييد فيها لأن ابن عمر لم يقل في حديثه المذكور: قاتلت مع النبي ﷺ بني المصطلق في شعبان، وإنما قال: إنه غزا مع النبي ﷺ بني المصطلق والغزو يصدق بشهود الغزوة، وحضوره مع المقاتلين، ولا يلزم ذلك أن يكون قد باشر القتال، والإذن لابن عمر في الخندق إنما كان بمباشرة القتال الذي رد عنه في أحد مع غيره من أقرانه.

فما حكاه البخاري عن موسى بن عقبة من كون غزوة بني

المصطلـق كانت سـنة أربع للهجـرة أقرب إلـى الاحتمال من قول ابن إسـحاق أنها كانت سـنة ست الذي يرده ذكر سعد بن معـاذ في حديث (الإفك)، و(الإفـك) إنما كان في غزوة بني المصطلـق قولًا واحدًا، وسـعد بن معاذ استشـهد بعد قريظة، وهي في سنة خمس باتفاق.

تحقيق سبب غزوة بني المصطلق

كانت هذه الغزوة بدءًا لكسح الجيوب المنتشرة هنا وهناك بعد كسر شوكة قريش، ومن كان قد انضوى تحت لوائها من شراذم القبائل التي ساقها الغرور الأحمق إلى منازلة المجتمع المسلم بقيادة النبي ﷺ، والتي كانت نهاية غزوة الخندق نهاية لفش تورماتها المتجمعة في تكتلات قد نخر السوس جذوعها، فتفرقت إلى أشتات لم تجتمع بعدها أبدًا للهجوم على هذا المجتمع المسلم، وذلك لتحول ميزان قوة هذا المجتمع من رواسب الجاهلية وتراثها المادي المظلم إلى حرب منهجية تقصد إلى نشر الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته إلى العالمين، مستهدفة إقامة منائر العدل والإخاء الإنساني والترابط المتلاحم المتراحم بين أفراد وجماعات الإنسانية في أرجاء الأرض.

كانت بنو المصطلق لا تزال تغط في نوم الرواسب الجاهلية بزعامة رئيسها الحارث بن أبي ضرار، وكانت تصك آذانها أخبار الحروب التي نشبت بين المجتمع المسلم في تركيبه الجديد بعد الهجرة وبين أعدائه الذين أقض مضاجعهم صدى انتصاراته المدوية، فتثير في أنفسهم نعرة الطيش المتهور.

وكان بنو المصطلق من بقايا هذا الغثاء المتخلف في سفح

جســور الحياة العربية، وقد ملكهم الرعب وخافوا إن هم ظلوا فــي موقفهم الاعتزالي المتحير المتردد أن تدور عليهم الدائرة وتقضــي عليهــم كتائب المجاهديــن وهم نائمــون، فتحركوا ليهاجمــوا المجتمــع المســلم بقيادة قائده الأعظم رســول الله ﷺ، وأخــذوا يعدون العدة، ويتأهبون بــكل ما قدروا عليه من الرجال والسلاح والمؤن لمهاجمة قوة هذا المجتمع المنتصر، ومشــى زعيمهــم ورجالهم فــي إحيــاء بقايا غســالات القبائل يجمعونهــا معهم لتجربــة حظهم في رد الســيل الجارف الذي اكتسح أمامه كل قوى الجاهلية الوثنية المعتمدة على المظاهر الماديــة المتهاوية تحت ضربات الجهاد القتالي الذي يخوضه المجتمع المســلم دفاعًا عن وجوده، وإزالة العقبات من طريق دعوته وتبليغ رسالته، رسالة الحق والعدل والنور والهدى.

وبلغ خبر تجمعاتهم وتحفزهم رســول الله ﷺ، فأراد جريًا على منهجــه أن يتحرى ويتأكد مما بلغه عنهم، فبعث رســول الله ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي ليعلم له علم أولئك القوم فاســتأذنه بريــدة في أن يقول مــا لا بد منه ليدخــل به عليهم، ويملــك الطمأنينــة منهم إليــه، ويفضوا إليه بذات أنفســهم، وينشــروا على مسامعه خبيئهم ليعلم ما عندهم، فأذن له النبي ﷺ في القول بالمعاريض والتورية.

فأتاهم بريدة ودخل في صفوفهم، واجتمع برئيسهم الحارث بن أبي ضرار، وتحدث إليه واختبر أمره وسره، فوجدهم على عزيمة مهاجمة رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم ليستأصلوهم من أرضهم ومنازلهم.

وكانوا قد استخبروا بريدة عن نفسه، فقالوا له: من الرجل؟ فقال: منكم قدمت لما بلغنا من جمعكم لهذا الرجل، وأسير في قومي ومن أطاعني، فنكون يدًا واحدة حتى نستأصله، فقال رئيسهم الحارث فنحن على ذلك، فعجل علينا، فقال لهم بريدة: أركب الآن وآتيكم بجمع كثير من قومي، فسروا بذلك منه.

ورجع بريدة بن الحصيب بما معه من علم أخبارهم إلى رسول الله ﷺ، فأخبره خبرهم وبث إليه حديثهم، وألقى بين يديه سرهم وجهرهم، فندب رسول الله ﷺ كتائب المجاهدين، وخرج بهم مسرعًا وكانوا سبع مئة مقاتل، وقادوا معهم ثلاثين فرسًا، أكثرها للأنصار، وكان في هذه الخيل فرسان للنبي ﷺ لزاز والظرب وخرجت معه أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، قيل: وخرجت معها أم سلمة -رضي الله عنها-.

وفي طريق رسول الله ﷺ إلى منازل بني المصطلق أتي برجل من عبد قيس، فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أين أهلك» قال: بالروحاء، قال: «أين تريد» قال: إياك جئت

لأومن بك وأشهد أن ما جئت به حق، وأقاتل معك عدوك، فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي هداك إلى الإسلام» فقال الرجل أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال ﷺ «الصلاة لأول وقتها».

وسؤال النبي ﷺ للرجل عن أهله، وأين يريد من التحرز الذي ينبغي أن يكون عليه القائد الأعظم وهو منهج من مناهج الرسالة الخالدة، وهذا التحرز إنما كان خشية أن يكون هذا الرجل عينًا للأعداء، أو كانت طريقه تمر عليهم فيسألونه فيخبرهم عن تجمعات المجتمع المسلم وقائده ﷺ وسيره، ولعل سيره إليهم يكون في طريق سير الرجل، فيخبر القوم وهو لا يشعر.

وفي طريقه ﷺ إلى بني المصطلق أصاب عينًا لهم يتجسس لهم أخبار رسول الله ﷺ وأخبار أصحابه، فأخذوه وسألوه عن المشركين وتجمعاتهم فأبى أن يذكر شيئًا عنهم أو يتحدث عن شأن من شئونهم، فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام فأبى أن يسلم، فأمر النبي ﷺ به عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فضرب عنقه.

وبلغ الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق، ومن معه من الجموع التي جمعها لحرب رسول الله ﷺ مسيره إليه وإلى جموعه، وأنه قتل عينه الذي بعثه ليتجسس الأخبار، فتملكه الخوف، ورعب رعبًا شديدًا، واستولى عليه الهلع والذعر، واستحوذ على

جموعه الفزع، فتفرقوا عنه وتركوه مع لفائف قومه.

وبلغ رسول الله ﷺ بأصحابه إلى (المُرَيسيع) فضرب عليه قبة، وتهيأ الجمعان للقتال، وصف ﷺ أصحابه، وأعطى راية المهاجرين لأبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، وفي رواية: أنها كانت مع عمار بن ياسر، وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة سيد الخزرج.

وأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أن ينادي بني المصطلق أن يقولوا: لا إله إلا الله، ليمنعوا بها أنفسهم وأموالهم، فأبوا أن يستجيبوا لدعوة الإسلام وبدءوا الحرب، فرمى رجل منهم كتائب المجاهدين بنبله وسهامه، وعندئذ أمر رسول الله ﷺ كتائبه المجاهدة أن يحملوا على أعدائهم حملة رجل واحد، فاستجابوا وصدقوا الله في حملتهم حتى أخذوا أعداءهم، فلم يفلت منهم أحد، وقتلوا منهم عشرة، وأسروا سائرهم، وكانوا سبع مئة رجل، وغنموا أموالهم، وسبوا نساءهم وذراريهم، واستاقوا نعمهم وشاءهم.

قال ابن سعد: وكانت الإبل ألفي بعير، والشاء خمسة آلاف شاة، وكان سبيهم مئة بيت، وقتل من المسلمين رجل واحد هو هشام بن صبابة، أصابه أنصاري من رهط عبادة بن الصامت، يقال له: أوس وهو لا يعرفه، وكان يرى أنه من المشركين،

فقتله خطأ، فقدم أخوه مقيس بن صبابة -لعنه الله- على رسول الله ﷺ وهو يظهر الإسـلام ويبطن أفجر الكفر والغدر، فقال: يا رسول الله جئتك مسلمًا، وأطلب دية أخي، قتل خطأ، فأمر له رسـول الله ﷺ بدية أخيه، وأقام بين المسلمين غير كثير حتى واتته الفرصة فعـدا على قاتل أخيه فقتله، ثم فر إلى مكة هاربًا بجرمـه كافرًا غادرًا لم يزدد إلا كفرًا وفجورًا، فأهدر النبي ﷺ دمه مع من أهدر دماءهم من فجرة المشـركين أمثال ابن خطل، والحويرث، ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة.

ولمـا فتـح الله تعالى على رسـوله ﷺ مكة عفـا عن جميع أهلها إلا الذين فجروا من مشـركيها، فإنه ﷺ قد أمر بقتلهم، وفيهم هذا الغادر الفاجر مقيس بن صبابة.

في غـزوة بنـي المصطلق ما يثبت أن منهج رسالة الإسلام أن لا يهاجم أحدا قبل دعوته إلى الإسلام:

هذه الروايات في سـبب هذه الغزوة مما اتفق عليه أهل السـير والمغـازي، وهي متفقة مع منهج الرسـالة الـذي فصلنا القول فيه تفصيـلًا في صدر الكلام على غزوات النبي ﷺ لا يترك فيه مجالًا للشـك، وقد سـجلنا هذا المنهج في كتابنا (سـماحة الإسـلام) بأسـانيده مـن السـنة وأعمـال الراشـدين فـي صدر الـكلام على مشـروعية جهاد القتال في الإسلام، وفي هذا التفصيل هنا وهناك

أوضحنا أن النبي ﷺ لم يهاجم قومًا بالحرب قبل أن يعرض عليهم الإِسلام عرضًا بينًا، فإن أبوه طلبت منهم الجزية عربًا أو غير عرب على القول الصحيح، فإن لم يستجيبوا لها قوتلوا وهم يعلمون، فلا يغدر بهم ولا يؤخذون على غرة، لأن مشروعية جهاد القتال في الإِسلام إنما كانت لدفع الذين يقفون في طريق الدعوة إلى الله، والذين يعوقون سير الرسالة في التبليغ بالقوة والحرب.

وقد ذكرنا ما روي في الصحيح من وصية النبي ﷺ لقواد بعوثه وسراياه ووصايا الصديق، والفاروق من بعده ﷺ، وقد ذكرنا أن النبي ﷺ جيء إليه بقوم أسارى أخذوا قبل أن يعرض عليهم الإِسلام فأطلقهم وردهم إلى مأمنهم.

وقد اتخذ ولاة الأمر الصالحون هذا المنهج ديدنهم ودأبهم، فلم يهاجموا أحدًا إلا بعد إعذار يقطع حجته بعرض الإِسلام عليه وإعطائه فرصة الاختيار ليسلم أو يستسلم.

بيد أن البخاري ومسلمًا ذكرا في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عون ما يدل على خلاف ما بيناه هنا في أصل مشروعية الجهاد لحماية الدعوة إلى الله، ونشر رسالة الإِسلام من أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون -أي غافلون- فأوقع بهم وقتل من رجالهم من قتل، وأسر سائرهم، وسبى نساءهم وذراريهم وغنم أموالهم من النعم والشاء ومتاع المنازل.

قال اليعمري في (العيون) وقد روينا من طريق مسلم أنه قال: حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا سليمان بن خضر عن ابن عون قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال، فكتب إليّ: إنما كان ذلك في أول الإسلام، قد أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق، وهم غارون وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى سبيهم، وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث، قال نافع: وحدثني بهذا الحديث عبد الله بن عمر، وكان في ذلك الجيش.

ترجيح ابن سعد رواية أهل المغازي على الرواية التي جاءت في الصحيح:

ثم قال اليعمري: وقدل أشار ابن سعد إلى هذه الرواية، وقال: الأول أثبت، وابن سعد بعد أن ساق كلام أهل المغازي قال: وكان ابن عمر يحدث أن النبي ﷺ أغار عليهم وهم غارون، ونعمهم تستقي الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى ذراريهم، والأول أثبت -أي قول أهل المغازي- إن بني المصطلق تهيئوا لحرب رسول الله ﷺ، وأعدوا له بزعامة رئيسهم الحارث بن أبي ضرار، وأن النبي ﷺ أرسل إليهم بريدة بن الحصيب ليعلم له علمهم، فأتاهم بريدة وكلم رئيسهم الحارث، وعاد إلى رسول الله ﷺ بخبرهم، فندب رسول الله ﷺ الناس إليهم وسار بهم حتى بلغ (المريسيع)، فضرب عليه قبته، وتهيأ الفريقان للقتال،

وترامـوا بالنبل سـاعة، ثم أمـر رسـول الله ﷺ أصحابه فحملوا عليهم حملة رجل واحد وهزموهم فما أفلت منهم إنسان.

وعبارة ابن إسـحاق: فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزمهم الله، وقتل منهم، ونفل رسول الله ﷺ نساءهم وأبناءهم وأموالهم.

ويقول ابن حجر: والذي في الصحيح يدل على أنه ﷺ أغار عليهـم على حين غفلـة منهم، ولفظه أن النبـي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تستقي على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم.

محاولة ابن حجر التوفيق بين رواية أهل السير والمغازي ورواة الصحيح، وهم أثبت وأوثق:

ثـم أخـذ ابـن حجـر فـي محاولـة التوفيق بيـن روايـة أهل المغـازي، وروايـة الصحيحين فقـال: يحتمـل أن يكون حين الإيقـاع بهـم ثبتوا قليلًا، فلمـا كثر فيهم القتـل انهزموا، بأن يكـون لما دهمهم وهم على الماء ثبتـوا وتصافوا ووقع القتال بين الطائفتين، ثم بعد ذلك وقعت الغلبة عليهم.

ثم أشـار ابن حجر إلـى كلام اليعمري فـي (العيون) وذكره لحديث عبد الله بن عمر من صحيح مسلم فقال: والحكم بكون الذي في السير أثبت مما في الصحيح مردود لا سيما مع إمكان الجمع، وفي طريقة ابن حجر للجمع تعسف في التأويل.

وأحسن طريق للجمع بين ما ذكره أصحاب السير والمغازي، وما جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر من أن النبي ﷺ أوقع ببني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تستقي على الماء: أن معنى غارون غافلون، أي مشغولون بسقي نعمهم حين وصول النبي ﷺ بكتائب المجاهدين إليهم، وهذا لا ينافي أنهم كانوا متأهبين لحربه ﷺ بجموعهم التي جمعوها واستعدوا بها لمهاجمته ﷺ، ولكنهم لم يبدءوا السير لهذا الهجوم، ومن كان على مثل حالهم لا تجدد له الدعوة، وإنما يؤخذ بالحرب والقتال على أي صورة يوجد عليها وتمكن من هزيمته.

أما الدعوة التي زعم نافع -رحمه الله- أنها كانت في أول الإسلام ثم نسخت، فلم يثبت قط في رواية صحيحة أو عمل من جهاد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وصالحي ولاة الأمر في أمته نسخها، بل ظلت باقية في كل جهاد قتالي قامت به جيوش المسلمين في عصور الاستقامة والعدل وقصد إعلاء كلمة الله.

والذي قاله نافع -رحمه الله- في رده على ابن عون من أن الدعوة قبل القتال كانت في أول الإسلام إنما هو اجتهاد لم يذكر له نصًا يدل عليه، فلا يقاوم النصوص الثابتة عن رسول الله ﷺ وعن خليفتيه أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق -رضي الله عنهما-، وقد جرى الأمر من بعدهما على ما جريا عليه.

وقــول نافع -رحمه الله- : إن الدعاء قبل القتال كان في أول الإِســلام يقتضي أن الدعاء قبل القتال كان منصوصًا ثم نســخ، ولم يثبت له نص ناسخ، فادعاء النسخ غير صحيح إلا إذا ثبت الناســخ، وليس ثمة ناســخ، فالدعاء قبل القتــال ثابت باق في الإِسلام لكل من لم تبلغه دعوة هذا الدين بلاغًا بينًا.

وقد قدمنا أنه ثبت في بعض روايات القصة أن النبي ﷺ أمر عمــر بن الخطاب -رضي الله عنه- أن ينادي في بني المصطلق بقوله: «قولــوا: لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفســكم وأموالكم»، وهــذا توكيد لشــرعة الدعاء قبــل القتال، وليس دعــاء مبتدأ، لأن بنــي المصطلق كانوا ممن بلغتهم دعوة الإِســلام، فتأهبوا لمهاجمته بما جمعوه من شــراذم القبائل التي انضوت إليهم، ثم لم يلبثوا لأول ما ذاقوا طعم الموت في حد السيوف وطعنات السنان أن فروا منهزمين، فأخذوا فلم يفلت منهم أحد.

صدق نافع في روايتـه عن مـولاه ابـن عمر ووجـوب تأويل كلامه:

وقول نافع: وحدثنــي بهذا الحديث ابن عمر -وكان في ذلك الجيش- قول صدق لا يرد على نافع لأنه في روايته ثقة صدوق، لا سيما عن مولاه عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-، ولكن الكلام لــه احتمال لا ينافــي صدق نافع في روايته عن مولاه ابن عمر، ولا

ينافـي أن الدعـاء قبل القتال بـاقٍ لم ينسـخ، وأن بني المصطلق بلغتهم دعوة الإسـلام وعرفوه معرفة ترفع وجوب دعائهم إليه إلا مـن باب التوكيد، ولكنهم كذبوا به واسـتكبروا في الأرض بغير الحـق عنادًا وكفـرًا، وأعدوا لحرب رسـول الله ﷺ الجموع التي جمعوهـا وتأهبـوا للهجوم، فسـار إليهم رسـول الله ﷺ بكتائب المجاهدين قبل أن يسيروا إليه، ففاجأهم على ماء (المريسيع): فلما وصل إليهـم زاحفوا أصحابه ورموه بالنبال، وقاتلوهم، فأمر رسول الله ﷺ كتائب الجهاد أن يحملوا عليهم حملة رجل واحد، فهزموهم، وقتلوا منهم بعضهم، وأسروا سائرهم.

وقـد ذكرنا الاحتمـال الذي يتم بـه التفوفيق بيـن روايات أصحاب السـير والمغازي، وظاهر حديث ابن عمر -رضي الله عنهمـا-، وهـو أن المعنى: غارون، أي غافلون مشـغولون في سقي أنعامهم على الماء، ولم يتوهموا قط أن أخبار تجمعاتهم بلغـت النبـي ﷺ، وأنه ﷺ تحـرك بكتائـب المجاهدين في وجههـم، فلقـي جموعهم على مـاء (المريسـيع) فزاحفوهم وتراموا بالنبال، وحمل عليهم أصحاب رسول الله ﷺ فصدقوا الحملة وأصابوهم فلم يفلت منهم إنسان.

والغفلة التي هي معنى الغرة كانت حين شغلهم بسقي نعمهم وشائهم، ولم تكن غفلة عن الإسلام ودعوته، لأنهم كانوا على

علم به وبرسالته، ولكنهم أخذوا في تجميع الجموع لحرب رسول الله ﷺ ومجتمعه المسلم ليستأصلوهم، فبادرهم ﷺ بعد أن تأكد من أخبارهم وأخبار تجمعاتهم والتقى بهم بجيشه، وقاتلهم وقاتلوه، بيد أنهم لم يصبروا على عض السيوف وطعن الرماح، فانهزموا أمام حملة المجاهدين، وقتل منهم عشرة رجال، وأخذ سائرهم أسرى، فالغرة التي في حديث ابن عمر كانت غفلة طارئة شغلوا بها في سقي أنعامهم، وفي فترة هذه الغفلة كانت الإغارة عليهم.

يُمْن عائشة -رضي الله عنها- وبركتها في نزول تشريع التيمم

وفي هذه الغزوة المباركة نزلت آية التيمم، وهي من تشريع الرحمة ورفع الإصر عن هذه الأمة الإسلامية.

وللتيمم آيتان في القرآن، إحداهما في سورة النساء، والأخرى في سورة المائدة وقد اختلف العلماء من السلف في أي آيتيه هي التي نزلت في غزوة بني المصطلق، فقال ابن بطال: هي آية النساء أو المائدة، ولم يرجح آية على آية في سبق النزول.

وقال القرطبي: هي آية النساء، ووجه قوله بأن آية المائدة تسمى آية الوضوء، أي إن ذكر التيمم فيها جاء بعد ذكر الوضوء، وعدم إمكانه حقيقة أو حكمًا، في قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ

وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة: ٦)

قال القرطبي: وآية النساء:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء: ٤٣)

لا ذكر فيها للوضوء.

وذهب هذا المذهب الواحدي حيث ذكر الحديث في آية النساء في كتابه أسباب النزول، وقال ابن حجر: وخفي على الجميع ما ظهر للبخاري من أنها آية المائدة بلا تردد لرواية عمرو بن الحارث إذ صرح فيها بقوله: فنزلت:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾

وقصة نزول آية التيمم وردت في الصحيحين، ذكرها البخاري في عدة مواضع، وذكرها مسلم في الطهارة، وهي من حديث عائشة -رضي الله عنها- في غزوة (المريسيع) قالت: خرجنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء، أو

بذات الجيش انقطع عقدي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر، فقالوا له: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ الناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء؟ فقالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول.

وقد بينت رواية البخاري هذا الإبهام الذي جاء في عتاب أبي بكر عائشة -رضي الله عنهما-، فقالت عائشة: فقال أبو بكر: يا بنية، في كل سفرة تكونين عناء وبلاء على الناس؟ فأنزل الله -تعالى- الرخصة في التيمم.

فرح المسلمين بنزول رخصة التيمم وثناؤهم على حفاوة الله -تعالى- بها:

وقد اغتبط المسلمون وفرحوا فرحًا شديدًا بفضل الله عليهم إذ فرج عنهم ضائقتهم ببركة عائشة -رضي الله عنها- وجاءها أبوها الصديق بعد هذا العتاب الشديد، وقد رأى غبطة المسلمين بحفاوة الله تعالى بهم حفاوة عامة في كل زمان ومكان ببركتها وإكرامًا لها، وإظهارًا لفضلها وتشريفًا

لمقامهـا، فقـال لها ووجهــه يتبلج بنور المحبــة الأبوية: إنك لمباركة.

وفــي رواية للطبرانــي ذكرها اليعمري فــي (العيون) أن أبا بكر قال لعائشة: والله يا بنية، إنك كما علمت لمباركة، وذكر الزرقاني، عن القتبي في تفسيره أن النبي ﷺ قال لها: «ما كان أعظم بركة قلادتك».

وقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركاتكم يا آل أبي بكر. وفــي رواية أنه قال لعائشــة: جزاك الله خيــرا، فوالله ما نزل بك أمــر تكرهينه إلا جعل الله لك منه مخرجًا، وجعل للمســلمين فيه بركة.

كشـف مقابـح النفـاق وفجـور المنـافقيـن وخبيث مكرهم وكيدهم للمسلمين:

وفــي بعــض أحــداث هــذه الغــزوة المباركــة نزلت ســورة المنافقون، كاشفة عن أقبح سوءات النفاق وفجور المنـافقين، وســوء مكرهم وكيدهم وإثارة الفتنة بين صفوف المســلمين، لتفريق كلمتهم، وتمزيق وحدتهم كما أراد رأس النفاق وخبيث المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول أن يحدثه في أوهى الأسباب التي لا يخلــو منها مجتمع عربي في تزاحم الجموع على الماء للســقيا والطهور، حيث ازدحم جهجــاه الغفاري -وكان أجيرًا

لعمـر بن الخطـاب، يقود فرسـه، وسـنان بن وبـر الجهني- حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، وتناديا بدعوى الجاهلية، فصرخ سـنان: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشـر المهاجرين، فلما سـمع بن أبي المنافق تناديهما بتلك الدعـوى الجاهلية المنتنة كما سـماها رسـول الله ﷺ غضب ابـن أبيّ، وصاح بلسـان الشـيطان: أوقد فعلوها؟ قـد نافرونا وكاثرونـا فـي بلادنا، والله مـا أعدُّنا وجلابيـب قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، في قصة طويلة، عرضنا لذكرها في مناسبة سابقة اقتضت ذكرها مفصلة، وبينا هناك ما في القصة من معالم منهج الرسالة، وأوضحنا ما كان من قوة إيمان الرجل الصالح عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سـلول في رسـوخ إيمانه ويقينه وصفاء سريرته، ونقاء إخلاصه لعقيدته ودينه إلى درجة أنه أراد أن يقتل أباه ويحمل رأسه إلى رسول الله ﷺ، فأمره ﷺ ببره والإحسـان إليه كما أوضحنا السياسة الحكيمة المحكمة التي انتهجها رسـول الله ﷺ لإطفـاء نيران هذه الفتنة المدمرة -التـي يكيد بها أعـداء الله وأعداء دينه، وأعداء رسـوله ﷺ، وأعداء المجتمع المسـلم من المنافقين الذين ينسجون خيوط الفجور والتآمر بالمجتمع المسلم في ظلمات التدسس والنفاق

وفجور الكفر -إذا خيف استشراؤها وضراوتها وتفاقمها، ومغبة نتائجها، وخشي على المجتمع المسلم المتماسك في بنائه الجديد بعناصر الإخاء الإيماني أن تفرقه تلك الفتن الجائحة الجامحة، وأن تمزق أديمه تلك المكايد الخبيثة التي يكيده بها المنافقون لتفصم عرى الوحدة بين صفوفه.

وسنعرض لذكر ما فاتنا وتأكيد ما ذكرنا عند الكلام إن شاء الله على مواقف المنافقين وخذلان الله تعالى لهم في تدسسهم وسيئ مكرهم وفجور كيدهم، وهم يخالطون المجتمع المسلم اعتمادًا على إظهارهم بعض شعائر الإسلام، وإخفائهم الكفر والفجور.

محنة الإفك والبهتان
أخبث وأخطر مكايد النفاق ولؤم المنافقين

وفـي هذه الغـزوة الممحصـة للإيمان وقعـت أخطر حادثة أدخلت على كل مسـلم ومسـلمة من البلاء ما لـم يدخل عليه مثلـه في محن الشـدائد والأزمات التي ابتلي بها المسـلمون، فقابلوها بصبر لم يتجرعوا مرارته في كارثة من كوارث الحياة، ولكنهـم تجلدوا لهـا، واحتملـوا لهيب نيرانها وهي تشـوي قلوبهـم وأكبادهم، وتحرق أفئدتهم، لأنهـم فوجئوا بها، فلم يعرفـوا لهـا مدخلًا ولا مخرجًـا، لأن المقاديـر الإلهية أرادتها لتكـون أبلغ درس فـي التربية الاجتماعية للمجتمع المسـلم، تلك هي حادثة أسوأ مكر، وأخبث فجور كاد به المنافقون هذا المجتمـع القائم في تركيبه الإيماني والاجتماعي على الطهارة والتطهر من دنس الأرجاس الحسية والمعنوية.

كان المجتمع المسلم قد أنهى معركة بني المصطلق بنصره المـؤزر على جموعهم، ونادى منادي رسـول الله ﷺ بالرحيل مـن ديار العدو، وأخـذ المجاهدون في الترحيـل بعد أن صفوا هـذا الجيب المتـواري من جيوب التربص بالمجتمع المسـلم ممثـلًا في قبيلة بني المصطلق وهي واقفة تؤرجحها الحيرة فلا تتقدم ولا تتأخر، يملكها الرعب فتنزوي في جحورها، ويعبث

بها الفزع والهلع يقيمانها بين الحرب والسلم.

وكانت انتصارات رسول الله ﷺ تفعم قلوب المنافقين غيظًا وحنقًا، تعترض في حلاقيمهم غصة تكتم أنفاسهم، فلا يتنفسون إلا من وراء أستار الظلام لأنهم جبناء رعاديد، ليس لديهم من الشجاعة ما يجعلهم يظهرون ما يبطنون، ولا يستطيعون أن يقفوا في ميادين القتال هنا أو هناك، فهم كفار فجرة إذا خلوا إلى شياطينهم من خبثاء اليهود، وهم مسلمون إذا رأوا راية الإسلام تخفق بالنصر، ولكنهم كما وصفهم الله تعالى في قوله عز شأنه:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾

(التوبة: ٥٦، ٥٧)

تلك هي حادثة التقول بالكذب والباطل، والافتراء المختلق في مصانع النفاق والفجور على أطهر الطاهرات المطهرات، الصديقة بنت الصديق -رضي الله عنهما-، حبيبة سيد الخلق محمد ﷺ أم المؤمنين السيدة العظيمة عائشة -رضوان الله عليها-.

وقد سمى الله تعالى في كتابه الحكيم هذا الافتراء (الإفك)

فقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ (النور : ١١)

والإِفـك أبلغ الكذب، وأرذل الافتراء، وألأم الاختلاق، كما سماه جل شأنه بهتانًا وهو يعاتب المؤمنين في سكوتهم لحظة سـماعهم بدافـع إيمانهـم بطهارة سـاحة النبـي ﷺ أن تكون فـي عصمته من تحوم حولها أدنى الشـبهات، وبدافع إيمانهم بطهـارة ذيـل من اصطفاهـا الله تعالى زوجًا لخيـر الخلق خاتم النبيين وسيد المرسلين، فكانت بهذا الاصطفاء أمًا للمؤمنين وسيدة نسـاء العالمين فضلًا وشرفًا وطهرًا وعلمًا وأدبًا وخلقًا - بقوله تعالى :

﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾

(النور : ١٢)

وبقوله تعالى :

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾

(النور : ١٦)

والبهتان هو البلاء لا يشعر به الإنسان حتى يفجأه بوقوعه.

وفي أسلوب هذه الآية الكريمة ضرب من البلاغة والمبالغة في تنفير المؤمنين عن سـكوتهم عند سـماع ما يسيء ويشين

سمعة أي مؤمن ومؤمنة، حيث جعل الله المؤمنين والمؤمنات شيئًا واحدًا بإيمانهم، وجعلهم كلهم نفسًا واحدة، يتوحد بها النفع والضرر، والخير والشر والإحسان والإساءة.

من أحسن ما قيل في بيان بلاغة الآية قول ابن المنير والزمخشري:

قال العلامة ابن المنير في انتصافه تعليقًا على قول الزمخشري: معناه ظنوا بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات، كقوله: لا تلمزوا أنفسكم. والسر في هذا التعبير تعطيف المؤمن على أخيه المؤمن وتوبيخه على أن يذكره بسوء، وتصوير ذلك بصورة من أخذ يقذف نفسه ويرميها بما ليس فيها من الفاحشة ولا شيء أشنع من ذلك.

قال الزمخشري: فإن قلت: هلا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرًا وقلتم، ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر؟ قلت: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرح بلفظ الإيمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتض أن لا يصدق مؤمن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن.

وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه أن يبني الأمر على الظن لا على الشك، وأن يقول بملء فيه بناء

على ظنه بالمؤمن الخير : ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ (النور: ١٢)

هكـذا بلفظ المصرح ببراءة ساحته كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال.

القرطبي يعمم العتاب ليجعله شاملًا لجميع المؤمنين والمؤمنات حاشا أبا أيوب الأنصاري وزوجه:

قال القرطبي أبو عبد الله: هذا عتاب لجميع المؤمنين، أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه، ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوجة نبيه -عليه الصلاة والسلام-، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان.

وقد وقع هذا التنزيه لله -تعالى- فخرج به من العتاب أبو أيوب الأنصاري وزوجته، إذ دخل عليها فقالت له: يا أبا أيوب، أسمعت ما قيل؟ فقال: نعم، وذلك الكذب! أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله، قال أبو أيوب: فعائشة والله أفضل منك، قالت أم أيوب: نعم، وهذا فضل انفرد به أبو أيوب وزوجته، فتفضل الله عليهما فأخرجهما من عتاب شمل جميع المؤمنين.

وقد أنزل الله تعالى في شأن قصة الإفك، وشأن المتكلمين فيه بالباطل والكذب وتبرئة الصديقة -رضي الله عنها- والثناء

عليها، وذكر ما أعده الله لها من عظيم الثواب في الآخرة، ونقاء السيرة في الدنيا، وعلو الدرجة في المجتمع المسلم أينما كانت أجياله وأوطانه -قرآنًا يتلى، ويتعبد بتلاوته وتشريعاته، ويصلى به، آيات محكمات، ملزمًا لكل مؤمن ومؤمنة بما جاء به من هداية وأحكام إلى يوم القيامة.

وذلك في نحو ست عشرة آية من صدر سورة النور، تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ (النور: ١١) وتختم بقوله جل شأنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ (النور: ٢٦)

كل آية منها مستقلة -كما يقول الزمخشري- بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ، وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين -رضي الله عنها-، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه.

الذي تولى كبر الإفك هو ابن أبي بن سلول رأس المنافقين ومشى خلفه مرضى القلوب:

وكان الذي تولى كبر هذا الإفك والبهتان وأشاعه واستوشاه هو الخبيث الفاجر رأس النفاق وزعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول -لعنه الله- وجاراه في ذلك بعض من استزلهم الشيطان فاستحوذ على مكامن الإيمان من أنفسهم فغطاها

بظلام وسوسته وضلالاته، وكانت فتنة عمياء، أصابت المجتمع المسلم بزلزلة هزت كيانه، ولم يكن الناس فيها سواسية، ولكنهم كانوا مختلفين، فأفصح بعضهم بعظيمة العظائم وقبيحة القبائح، وجمجم آخرون، وسكتت طائفة فلم تدر من شدة الدهش والذهول ما تقول، وكعَّ[٢٧] بعض عن الإفصاح بالحق في تنزيه حليلة خير المرسلين الطاهرة المطهرة أم المؤمنين -رضي الله عنها-، وأنزل الله -تعالى- عقابه على من جبن وسكت ولم يدفع الإفك والبهتان عن ساحة الطهر والكمال، وادخر للذين صرحوا واستوشوا الافتراء والكذب يثيرونه كلما خبت ناره زادوها تسعيرًا.

أولئك هم المنافقون والذين في قلوبهم مرض ممن لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم، وهم الذين كانوا يسمعون ولا ينكرون لضعف ثقتهم في أنفسهم لضعف إيمانهم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٤٧)

شدة بلاء هذا الحادث على رسول الله ﷺ وعلى زوجه أم المؤمنين وعلى أبويها وآلها وسائر المسلمين:

وكان في هذا الحدث الخطير من شدة البلاء لرسول الله ﷺ ما لم يعلم مبلغ إيجاعه وإيلامه إلا الله تعالى، ولكن رسول الله

(٢٧) كع: تلكأ وجبن. (المجلة).

ﷺ كان في صبره فوق مستوى الأحداث وآلامها، فصبر أجمل الصبر، واحتمل أعظم الاحتمال، وعالج الأمر بحكمة هادئة، وكان همه الأكبر أن يقي المجتمع المسلم عواصف الفتن، وقواصم المكايد النفاقية التي كانت تثيرها العصبيات القومية التي كانت من بقايا الرواسب الجاهلية في أنفس بعض المؤمنين.

كما كان في هذا الحدث الخطير لأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-، زوجة سيد الخلق وأحب الناس إليه، ولأبويها وآلها، وخاصة المسلمين وعامتهم ما أقض مضاجعهم ونشف الدمع في مآقيهم، حتى كشف الله تعالى الغمة، وفرج الكربة، وأنزل وحيه بالقرآن الكريم على رسوله الأمين بما لم يكن لأحد في الحسبان، ولا وقع مثله قط في حادثة من الحوادث التي تراها النظرة العابرة على أنها حادثة فردية كان يكفي في إبطالها أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا منامية في تبرئة أطهر الطاهرات أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق.

ما غيبته الأقدار في هذا البلاء من حكم ربانية تمثل جوانب من منهج الرسالة:

ولكن الله تعالى أراد أن يجعل هذه الحادثة درسًا تربويًا بليغًا للمجتمع المسلم تبقى معه آثاره ما بقي في الحياة من يتلو آيات الله من الهدى والنور.

وأن يجعــل منها درسًــا تأديبيًــا للذين ســاقتهم العصبيات القوميــة ســياقًا لا يرضــاه إيمانهــم برســالة الإسـلام وآدابهــا وشرائعها وأحكامها وأخلاقها.

وأن يجعــل منهــا نــكالًا للنفــاق والمنافقيــن، وللذين في قلوبهم مرض لا يشــفيه إلا الإرجاف بالسوء وإشاعة الأكاذيب والبهتان في مجتمع المؤمنين.

وأن يجعــل منها منارًا علــى طريق الذين ملأ الإيمان قلوبهم ليزيدهم علمًا بمقام رســول الله ﷺ ومعرفة بحرماته، وتقديرًا لمنزلته عند ربه الذي أرسله هدى ورحمة للعالمين.

وأن يجعــل منها منهجًا لمعالم الاصطفاء لخواص المقربين لرســول الله ﷺ لتعرفهــم الأمة بنعــوت فضلهــم وفواضلهم، وتعرف لهم أقدارهم في ذروة دوحة الإيمان والمؤمنين.

وأن يجعــل منها خصيصة ليرفع من شــأن أطهر الطاهرات، الصديقــة بنــت الصديــق زوج أحب خلــق الله إلــى الله، إظهارًا لشــرفها الذاتي والاجتماعي، وإنافة لمكانتهــا في أهل البيت طهــرًا وفضلًا وشــرفًا، وثقــلًا في ميــزان الفضائل الإنســانية والإيمانية لمكانها من قلب رسول الله ﷺ.

قالت عائشــة -رضــي الله عنها- مــن حديثهــا الطويل عند البخــاري: فقدمنــا المدينــة فاشــتكيت حيــن قدمت شــهرًا،

والنـاس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشـعر بشـيء من ذلك، وكان الذي يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي.

إنمـا يدخل عليّ رسـول الله ﷺ، ثم يقول: «كيف تيكم؟» ثم ينصرف، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر.

فهرس المحتويات